زهير أبو سعد

عنوان الكتاب: متخفية بالتقوى
اسم المؤلف: زهير أبو سعد
تصميم الغلاف: معتزّ عدنان العزّام
تدقيق لغوي ومراجعة: منى سويد

الطبعة الأولى 2017 م

© جميع حقوق الطبع والنشر
محفوظة للكاتب زهير أبو سعد

رقم الإيداع: 7358 /2017
Literar-Mechana

طُبع في مطبعة Expressprint

مُتخفية بالتقوى

زهير أبو سعد

إهداء

مِن عاصِمَة المُوسِيقى فِيينَّا

إلَى عَاصِمة اليَاسمِين دِمَشق

لُغزٌ كَبير يَتخَبطُ بِنا عِندَما نَفقِدُ زِمامَ الأُمورِ ..

و كَثَيرٌ مِنَ الأحَداثِ تُلخَصُ بِموجَزٍ صَغَيرٍ قَبلَ أيةِ نَشرَةٍ جَويَةٍ ، و لَكأنَّ هَذا الوَطنَ عبارةٌ عن رَغيفٍ مُشَرَّبٍ بِدَمٍ حَلالٍ ، الكُلُ يَنظُرُ إلينا بِمَلَلٍ

إنَّهُ الضَجَرُ الذِي يَسبِقُ أيةَ عَاصِفَةٍ إخباريَةٍ ..

أشياءٌ بينَها و بينَ اللامُبَالاةِ صِلةُ شُرودٍ عَنِ الذَاكِرَةِ ، و إنَ أنصَفت الذَاكِرَة جَيداً لَوجدت بِأنَنا نَحنُ من نُحِيكُ ماضيها و مُستقبَلَها ..

فقط لأنَنا ضَحيَةُ ذَاكِرة ..

فَأنتَ مُرغَمٌ على انصَافِها لأنَّها كُلُكَ قَبلَ أن تَكونَ جُزءاً مِنكَ ، أنتَ أسيرُ تفاصيلِها الصَغيرَةِ قَبل الكَبيرَةِ ، و مَهما مَضيتَ مُقبِلاً أو مُدبِراً ، تُلاحِقُكَ أينَما اتَّجَهتَ ..

لَيسَ لَها حَقائِبٌ لِتحمِلَ بُؤسَها و فَرَحَها ،أنتَ حَقَائِبُها و أوهامُها و أحلامُها و أشباحُها ، لَيسَ لأثوابِها جُيوبٌ لتحتَفِظَ داخِلها بِمَفاتيحِ أسَرارِكَ ، و لَكِنَكَ أنتَ جيبُها

المَثقوبُ الذي تَتسرَّبُ مِنهُ تَفاصيلٌ أنتَ بِغِنى عَن هَتكِ سَترِها ..

لن تَستَطيعَ فِعلَ شَيءٍ أَمامَ أَمواجِها ، لأنَك أنتَ سَاحِلُها بِمناخاتِها المُتَقَلِبَةِ ، فَمهما ضَرَبتكَ أعاصيرُها بينَ مَدٍ و جَزرٍ ، فَلَها هُدوئَها المُباغِتُ ، و لَكَ آلامٌ لَمْ تَكُن بِالحُسبانِ..

و لأنَّكَ في زَمَنٍ لا يعتَرِفُ بِكَ سِوى أنَّك ذَاكِرة ، ينهَشُ مَاضِيكَ و يُهَدِدُ مُستَقبَلَكَ ، فَيا تُعساً لما تَبقّى مِن عُمرِكَ ..

كُنتُ أَحلُمُ دائِماً بِأنَني صَديقٌ لِلكَلِماتِ ، و أُنثَى دِمشقية تَعبُرُ سَرابَ العِباراتِ بِكُلِ مُرونَةٍ ، و أمشي على السُطورِ الوَهميَةِ حافيَةٌ مِنَ الصَمتِ ، مُجرَدَةٌ مِنَ خِفَةِ السُكونِ الذي أوصَلَني أَن أكتُبَ الذَاكِرَةَ ..

خُدِعْتُ ..

و يا ليتَني لَمْ أثق بِالكَلِماتِ لأنَّها لطَمَت تِلكَ الطِفلَةَ في دَاخلي ، لَيتني وَضَعتُ حَداً لِلعِباراتِ التي أَذابَت لُبي و انحَسَرَ فِيها مَدي ..

أنَا هِيَ إذاً .. !

مَزيجٌ مِن جِراحٍ لا أَعتَقِدُ بِأَنَّ الحُكماءَ وَجدُوا لَها دَواءً ، و لَحمٌ شَهِيٌ لِلقَضمِ بِلا أيَةِ هَوِيَةٍ عَاطِفيَةٍ أو وِصَايَةٍ أبَويَةٍ ، و ذَاكِرَةٍ مُشتَعلَةٍ بِالحَنينِ و الحُبِ و المُكَابَرَةِ ..

ذَاكِرَةٌ لَمْ أتصوّر يَوماً بِأَنَّها سَتَكتُبُني ، و مَا إن سالَت حِرابُ أقلامِها ..

حتى أَدمَتني حِبراً و أبكَتني أَحرُفاً ..

إِنَّهُ الوَجَعُ الذي لَمْ أَجد لَهُ مُسكِّناً ..

كُنتُ دَائِمَةَ الوقُوفِ بينَ حَرفٍ عاطِفيٍ تَشتَعِلُ تحتَهُ نِيرانٌ تُسَمى كَرامَةُ أُنثى ، و بَين ماضٍ تَعودُ بِيَ الذَاكِرَةُ إِليهِ ، مَاضٍ لا أرغَبُ بِالعودَةِ إليهِ..

و لا زِلتُ أُشفِقُ على ذَاتِي كَيفَ سَمحتُ لِهَذا القَلبِ أن يَعشَقَ طَيفاً خَارِجَ حُدودِ المَنطِقِ و العَقلِ ..

خُطِفَ القَلبُ بِرؤياهُ في صَباحٍ غَابَ فِيهِ الوَعيُ و حَلَّت بِهِ سَكرَةُ اللهفَةِ ..

سَالَ لُعَابُ الحُبِ وَقتَها ، وحالَ فيما بيننا زُجَاج الكِبرِياءِ ، لَستُ من هؤلاءِ الجَائِعَاتِ لِرائِحَةِ رَجُلٍ ، و لَمْ أدخُل في مَتاهاتِ ما يُسَمى بِالحُبِ قَبلَ هَذا اللِقاءِ الصَباحِيِّ ..

و لَكن لأنَكِ أُنثَى فَلن تَستَطيعي أنْ تُخرِسِي تَطَفُلَ الحُبِ في أحشَائِكِ ، إنَّها حَالةُ لَهفَةٍ و غَفوَةٍ و رقدَةٌ لا تَعلَمُ صَاحِبَتُها مَتى تَستَيقِظُ

الله ..

وَحدهُ الذِي أتَوسَدُ أعتابَهُ كَي يُخَلِصَني من صَخَبِ المَاضي ، كَم افتَرَشتُ بَابَهُ أبكيهِ و أبكِي لأجلي ، و لكن بَعدَ كُلِ دَمعَةٍ كُنتُ أتنَفَّسُ ثَانِي أُكسيد الطَمأنينَةِ و الراحَةِ ، و أنَامُ طَاوِيَةً وَجَعي تَحتَ وِسادَتِي كَمن تُخَبِئُ جِنايَةً تَخافُ أن يُفتَضَحَ أمرُها ..

و مَعَ أنَّ كُلَ الرِواياتِ لَها بِدايَةٌ ..

فَإِنَّ حِكَايتِي قَد انتَهَت مُذ أن بَدَأتُ أكتُبَني ..

و هَل الوَجَعُ يُكتَبُ يا أربابَ الأدَبِ ! ..

وَحدَها الأُنثَى عِندَما يَلحَقُ بِقلبِها الظُلمُ تَجعَلُ مِن وَجَعِها نَاراً مُوقَدَةً ، تَحرِقُ الكَلِماتِ ، تحرِقُ العِباراتِ ، و تَجعَلُ مِنَ الرَمَادِ سَواداً كَتِلكَ الرَاياتِ التي زَحَفَ خَلفَ خُرافَتِها آلافٌ مُؤلَفَةٌ من شُبَّانِ أُمَتِنا ..

خَدَعونا فَقالوا :

هَذا شَرع اللهِ ..

و مِن هُنا تَبخَّرَتِ الرُجُولَةُ بِكُلِ مُكَابَرَةٍ ، مُتناسينَ ذَاكِرَتَهُم و مَاضيهم ، يَجرّونَ أَوهَامَهُم إلى الأحلامِ و السَوَادِ ..

نَعم هُم ضَحايانا التي لن يُسَامِحنا التَاريخُ لِأَنَنا لَمْ نَحمِل أَحلامَهُم بِكفِّ الرِعايَةِ ، و لِلأسف بَدأَت شياطِينَهُم تُفَكِرُ مَعهُم عَنِ البَديل ..

يُرِيدُونَ أن يَضَعوا بَصماتهم على جِباهِ الأمَةِ ..

فَسَتُبَشِرُنا خَيراً ..

و قُلنَا إِنَّها الحُرِية جاءَت بِسلامِها ..

و لَكِن خُدِعنا بِأقنِعَةٍ مُشبَعَةٍ بِالكَذِبِ و النِفَاقِ ، و ما كَانَ مِن أفكَارِهم إلا و لَطَّخَت ماضينا و مُستَقبَلَنا بِالدِماءِ ، فَكُلٌ

مُتّهَمٌ بِنُصوصِ عَقيدَتِهم بِأننا كُفَارٌ وَاجِبٌ عَليهم ذَبحُنا كَالنِعَاجِ ..

إِنَّها لَيسَت أفكَاراً شُيوعيَةً و لا أحلاماً ماركسيةً و لا خُرافَاتٌ وَهميَةٌ و لا حَتى عَاداتٍ و تَقَالِيد ..

إِنَّهُ الذَبحُ ..

الذِي يَهتِفونَ بِهِ على مَقرُبَةٍ مِنَ المواقِعِ الإلكِترونيَّةِ بِشِعَارِهم الذِي فَرّقَ ذَاكِرتَنا :

ـ جِئْناكُم بِالذَبحِ ..

هُم لَمْ يَذَبَحونا ، بل ذَبَحوا خَوفَهُم مِنا ..

وهَا نَحنُ لا زِلنا على قَيدِ الحُرِّيَةِ نَراهُم يُذبَحونَ بِطائِراتِ التَحَالُفِ الدُوَلي كَقُطعانِ الخِرافِ ..

بَاتَ قَلبي كالحِجَارَةِ أو أشَدُّ قَسوَةً ..

تَستَوقِفُني النشراتُ الإخباريَةُ أُشاهِدُ مَصرَعَهُم ، كَيفَ يُسحَقونَ و يُبادُونَ كالحَشَراتِ بِلا أَيَةِ رَحمَةٍ ..

وَ كَيفَ تَنزِلُ عَليهمُ الرَحمَةُ و قُلوبُهم المُظلِمَةُ قَد نَزَعَ اللهُ مِنها الرَحمَةَ !! ..

شَتَّان بينَ رَحمَةِ الله وتِلكَ القُلوبُ المُلَوَثَةُ بِالدِمَاءِ

لأنَني أُنَثى ..أنَا مُتعَبَةٌ مِنَ الذَاكِرَةِ ..

لأنَّ ذَاكِرتي مُعَلقَةٌ بِخُرافَةِ حُبٍ دَاسَ كَرامَتي ..

و ما مَعنى أَنْ تَفقِدَ الأُنثَى كَرامَتَها ! ..

و مِن أَجلِ ماذا ؟ ..

مِن أَجلِ شَابٍ سَرَقَ لُبَّها و حَفَرَ على رُخامِ قَلبِها

ـ هَذا القَلبُ لي ..

هَذا القَلبُ لي ..

عِندَما كانَت تَأتيني هَذِهِ الجُملَةُ بِأَحمالِها ..

كُنتُ أقِفُ دَقِيقَةَ صَمتٍ ..

لَيسَ اِحتراماً لِلمُتَكَلِمِ ، و لا لِلكَلِماتِ ..

إِنَّما حِداداً على قَلبِي ..

و كَيفَ لِمشَاعري تَصدِيقَ هَذا الكَمِ الهَائِلِ مِنَ الوَهمِ ؟

كُنتُ دَائِماً مُعارِضَةً و رَافِضَةً لِما يُدليهِ عَلَيَّ قلبِي مِنَ الهَوى ، و لكِن في لَحظَةِ ضَعفٍ تَخِرُ قِواي لِمَن اتَّخذَ هَذِهِ العِبارَةَ دُستوراً :

دَعي القَلبَ يُسنِدُ أشواقَهُ على جُدرانِ الهَوى ، فَإِنَّ القَلبَ مَأمورٌ ..

رَبَّاهُ ..أتعَبني هَذا القَلبُ ..

مَا تُراهُ فَاعِلٌ بِي !! ..

لَقد فَعَل بِي مَا لم يَفعَلهُ إخوَةُ يُوسُفَ بِأَخيهم ..

يَومَ كَانَتِ الشَامُ شَامُنا ..

ذَاتَ صَباحٍ و في أوّلِ يَومٍ مِن أيامِ الجَامِعَةِ ..

اليومُ كُتِبَ لِي عُمر جَديدٌ ..

ثَمَانِية عَشر سَنَة ..

مُدَلَلَةُ العَائِلَةِ وَحيدَتهُم و حَبِيبَةُ أبِيها ..

أختٌ لِثلاثةِ فِتيَةٍ ..

شُبانٌ أحسَنَ أبي تَربيَتَهُم ، حَتى ذَاعَ صيتُهُم في حَيِّ المَيدَانِ الدِمشقي ، عَائِلَةٌ لا يُسمَعُ لَهُم صَوتٌ سِوى عِندَ مُرورِهم في أَزِقَةِ المَيدانِ مُلقينَ السلامَ على جيرانِهم في الذهابِ والإيابِ ..

كَانَت أحلامُهُم صَغيرَة ، كباحَةِ بيتِنا الدِمَشقي الذي تَجُوبُهُ أُمٌ مِسكينَةٌ لا تَعرِفُ مِن تَلَوّثِ الطُرُقاتِ سِوى دُكَّانِ أبو سَليم في آخِرِ حَارَتِنا ..

أحَلامٌ على مَقاسِ أبي ..

يحلُمُ بِأن يُنهوا تحصيلَهُم الجامِعي كي يَضمَنَ لهُم مُستَقبَلاً آمِناً ، كانَ يَقولُ دَائِماً :

أُريدُ أن أموتَ مُطمَئِناً على مُستَقبَلِكُم ..

فَكَانَتِ الأحلامُ لا تَتَخطَى شهَادَةً جَامِعيَةً ، لنَبني عَليها مُستَقبَلنا ..

لَمْ نَكُن نَعرِفُ عَالَمَ السُرعَةِ و التِقَنيَةِ الرَقَميَةِ و الفِتَنِ الإلكترونيَةِ ..

كَانت تَجمَعُنا شَاشَةٌ صَغَيرَةٌ نُتابِعُ مِن خِلالِها ثَلاثَ مَحطَاتٍ وَطَنيَةٍ ، كُنَّا نَرى مِن خِلالِها الوَطن ، أمَامَ الوَطنِ و في كَنَفِ أبوينِ حَنونَينِ و إخوَةٍ كَانَت أُمي تَقولُ لَهُم :

أنتُم بَعدَ الله ثُمَ مِن بَعدِنا سَنَداً لأُختِكُم ..

نَعم سَنداً طَيباً ، وخَلَفاً طَاهِراً لِرَجُلٍ طاهِرٍ..أبي

أبِي أينَ أنتَ لتَرى مَا حَلَّ بِمُدلَلَتِكَ ؟

وَحدَها القُبورُ تَعلَمُ مَا قَد حَلَّ بِهم ..

في ذَلِكَ الصَباحِ الدِمشقي ، ارتَدَيتُ حِجَابي الأبَيض ، و شَدَدتُهُ على عُنُقِي كمَا تَفعَلُ أُمّي بِحجَابِها ، ووَضَعتُ جِلبَابِي الأسود القَصِير على جَسَدِي ، كُنتُ لا أعرِفُ مِن جَسَدي سِوى أن أستُرَهُ ، لا أعلَمُ لِما أو لِماذا !! ..

و حَملتُ كُتُبي الجامِعيَةِ في حَقيبَتي و نَزلتُ لأَتَناولَ إِفطارِي مَعَ العَائِلَةِ على عَجَلٍ ..

عُيونٌ تَنُظُر إلي ، تُفتِشُني بِحَنَانٍ ، نَظراتٌ يَتسَرَبُ مِنها الأَمَانُ ، ذُهولٌ مُنصِفٌ مُحَاطٌ بِالدَعواتِ ، هَالَةٌ مِنَ الصَمتِ اجتَاحت مَلامِحَهُم ..

أَسَرعتُ إِلَيهم كمَا كُلَ صَباحٍ حَتى أكسِرَ حِدَةَ نَظراتِهم التي أحرَجَتني ، و انحنَيتُ مُقَبِلَةً يدَ أبي كَما جَرتِ العَادَةُ فَسَحَبَ يَدَهُ بِسُرعَةٍ و رَاحَ يُقَبِلُني بِأبوَةٍ لَيسَ لَهَا مَثيل و ضَمَني إلى صَدرِهِ الدَافئ ، و تَوجَّهْتُ إلى أُمّي مُقَبِّلَةً يَدها..

اِجتَاحَ قَلبي الإِحراج ..

رُبَّما لأَنَني ارتَدَيتُ الجِلبابَ انصياعاً لأمرِ وَالدي ، الذِي لا يُرَدُ طَلَبُهُ حَتى لو أَمَرَني بِشنقِ نَفسي ، سِرٌ دَفينٌ في التَربِيَةِ الدِمشقيَةِ بينَ الأبنَاءِ و الآباءِ يُخبِرُنا بِهِ قولُ الله عَزَّ و جل:

يا أَبَتي افعَل مَا تُؤمَر .. سَتَجِدُني إِن شَاءَ الله منَ الصَابِرين ..

كُنتُ أتنَاوَلُ إِفطاري مَعَهُم على حَياءٍ ، كَأَنَني أنا لَستُ أنَا و اللذينَ يَنظُرانِ إليَّ لَيسا أبَوَيّ ..

خاطَبَني أبي مُتَبسِماً :

كَبِرتِ يا بُنَيَّتي ، جَعلَكِ اللهُ مِنَ الصالِحَاتِ ..

أكمَلت أُمي ما بدأ بِهِ أبي مَسرورَةً :

اللهُمَ آمين .. و سَهَّل اللهُ أمرَكِ أينما اتَجَهتِ يا حَبِيبَةَ أُمِكِ..

أُحطُتُ بِالتَوفِيقِ في لَحظَةٍ قَد رَتَّبَها القَدَرُ ..

و حَمَلتُ أحلامي أجُرُها وحْدي إلى جامِعَةِ دِمَشق كُليةِ الآدَابِ ..

أنا التي حَبَوتُ على حُضنِ وَالِدَينِ تَبعثَرَ الشَيبُ على مَفارِقِ رَأسيهِما ، لَمْ أعرف مِنَ الحُبَّ سِوى حُبّهما ، و لَمْ يَنبِض هَذا القلبُ سِوى لَهُما ..

ثَمانيَةَ عَشَر عاماً و الطِفلَةُ لَمْ تَبلُغ مِنَ الحُبِ سِوى حُبِهَا لِعائِلَتِها ..

وها هي اليَومَ تَخطو بِحِذائِها الأَسوَدِ بِكعبِهِ القَصيرِ، و جِلبَابِها الدَاكِنِ بتنَاسُقِهِ المُتواضِع ، و بِحِجابِها الدِمشقي الياسَمِيني ..

كُلُ شَيءٍ تَغيّرَ في هَذِهِ اللحظَةِ ..

العُيون .. آهٍ منَها مِن عُيونٍ ..

تُشهِرُ عَلَيكِ بَراءتَها تَارَةً ، و تَارَةً تَراكِ وَجبَةً شَهِيَةً لِلقَضمِ ، فَمهمَا تَخطيتِ تَطَفُلَها سَتبَقى تُلاحِقُكِ شَاهِرةً عَليكِ سُمومَها و رُبَّما عِطرَها ..

فَغَضُ البَصَرِ في هَذِهِ المَدِينَةِ حَرامٌ على النِساءِ ، و حَلالٌ لِلرِجَالِ ..

لا تَضحَك فَأنتَ في مَدينَةٍ مُؤنَثَةٍ تُسمى دمشق ، ولُصوصُها رِجَالٌ مِن صُلبِ رِجالٍ ، مَدينَةٌ سَطت عَليها عَاداتٌ و تَقاليدٌ و مَذاهبٌ و طوائِفٌ

فَلَيسَ مِنَ الواجِبِ عَليكَ احتِرامَها .. و لَكن مِنَ الواجِبِ عَليكَ عِبادَةَ رِجالَها ..

الفَسَادُ فِي كُلِ مكَانٍ .. هُنَا و هُنَاك ..

فَسَادٌ ذُكوري عُنصُري طَبَقي مُنتَشِرٌ في كُلِ مَكَانٍ ، وعُيونٌ شَاهِرَةٌ شَهواتِها لِتَرصُدَ كُلَّ أُنثَى تَمُرُّ مِن أمامِ رُجولتِهم ، و مَهما حاولتِ الهروبَ مِن هَذا الجَحيمِ الذي يَتَّسِعُ بِكِ و مَعَكِ ..

أنتِ لا تنتمي بَعدَ الآنِ إلى عَالَمِ الطُفولَةِ ، هَذِهِ المَدينَةُ تَطوي طَهَارتَكِ لِتنضُجي و تَكبُري و يزدَادُ تَحرُشُ الأعيُنِ بِكِ آنِسَتي ..

أقِفُ على نَواصِي الأرصِفَةِ .. مُرتَعِشَةٌ ..

مُجرَّدَةٌ مِنَ الأمَانِ ، مُبلَلَةٌ بِالخُوفِ ..

إنَّها دِمشقُ ..

مَا هُوَ مَوقعُكَ مِنَ الحُبِ في هَذِهِ المَدينَةِ المُؤثَثَةِ بِالياسَمين ، و المُؤثثَةِ بِروحانيَةٍ لَن تَجِدَ لَهَا مَثِيل..

مَولَوِيَةٌ أنتِ يا عَاصِمَةَ المَقامِ المَبحُوحِ ..

أُمَوِيةٌ أنتِ يا خَلِيلَةَ الهَوى المَنقوشِ ..

الكُلُ يَزحَفُ هُنا على كَفَّةِ القَدَرِ ..

الكُلُ يَعزِفُ هُنا على نُوتَةِ السحرِ ..

شَهِيةٌ رَائِحَةُ الصَباحِ المُغبَّرَةِ بِوجوهِ الغُرباءِ ..

وتتساءلُ في قَرارَةِ نَفسِكَ :

لمَا هَذا الكَمُ الهَائِلُ مِنَ البَشَرِ يَحِجّونَ إلى هَذِهِ المَدينَةِ !!

هُوَ السِرُّ الذِي لَمْ يُطَلِع اللهُ عَليهِ أَحَداً ..

إنَّها البَرَكَةُ ..

كَما يَقولُ أهلُ العِشقِ ..

بَرَكَةُ الشَامِ بِعاصِمَتِها دِمشق ..

يتَسَرَّبُ البَشَرُ مِن كُلِ شُقوقِ الألَمِ ، و يَتسَللونَ من كَافَةِ ثُقوبِ الوَجَعِ ، و تَتَفجَرُ خَطواتُهم في كُلِ مكَانٍ ..

عَلى الأرصِفَةِ .. و في الشَوارِعِ .. و المَقاهِي .. و المَطَاعِمِ الشَعبيَةِ .. وجوهٌ كَسَاها الصَباحُ صمتاً مَا بَعدهُ صَمت .

وما إن وَصلتُ إلى الطَرَفِ الآخَرِ لِمسجِدِ أحِدِ عَمالِقَةِ الشَامِ ، الشِيخ العلَّامَة :

حَسن حَبنكة المَيدَاني ..

حَتى شَتَتَ وِجهَتي الإنتظار ..

حَافِلاتٌ كَبيرةٌ و صَغيرَةٌ تُقِلُ هَؤلاءِ البَشَر..إلى وَظائِفِهم ، حَتى تَوقَفَت إحْدى الحَافِلاتِ الصَغيرَة ..

مُهاجِرين صِناعة ..

هَكذا كُتِبَ على لَوحَةِ الحَافِلة التي تَغُصُ بِالموظَفين و الطَلَبَةِ ، مَكانٌ وَاحِد بِجَانِبِ النَافِذَةِ يَنتَظِرُني ..

أَرَحتُ تَرَقُبي ، ووَجَهتُ وَجهي إلى النافِذَةِ حَتى أكسِرَ مُعَاكَسَةَ العُيونِ المُتَطَفِلَةِ ..

شَابٌ أمَامِي لَمحتُ هُدوئَهُ المُكَابِرَ يُقَابِلُ تَوتُري ..

شَابٌ يَسبَحُ عَكسَ تَيارِ الرِجَالِ ..

يَكسِرُ نَظراتِهِ نَحوَ الأرضِ ، يُشغِلُ نَفسَهُ بِترتِيبِ كُتُبِهِ ، هَيبَةُ الفُتوَةِ تَكادُ تَلعَقُ سَكينَتَهُ ..

أُحَاوِلُ أن أُنصِتَ لِلمُحاضَرَةِ التي يُلقيها الدُكتور

مُحمد رَاتِب النَابُلسِي ..

التي يَتَرقَبُها كُلُ الدِمَشقيينَ صباحَ كُلِ يومٍ ..

الكُلُ يَستَمِعُ بِنِفاقٍ .. و يَتَجَسَّسُ بِإِثمٍ ..

والآذانُ تُصَبُ فيها التقْوى ، و العيونُ متأهِبَةٌ تَتَرَصَدُ المائِعَاتِ و المَائِلاتِ و المُمِلاتِ ..

عَاصِمَةٌ كُلُ مَن فِيها يَكذِبُ ..

يُرَقِعونَ آثَامَهُم بِالإِستِماعِ إلى مَواعِظِ العُلمَاءِ و أصواتِ القُرآنِ في كُلِ بُرهَةِ فَجرٍ ، لَيسَ خَوفاً من عِقابِ اللهِ ، بَل خَوفاً مِن قَطعِ الأرزَاقِ ..

عَاصِمَةٌ ..كُلُ مَن فِيها يَعقِدونَ أرزَاقَهُم كُلَ صَباحٍ بِاستِمَاعِهم للرَوحَانياتِ ، و لو عَبَدوا اللهَ حُباً و طَاعَةً لما

رَأيتَ هَذِهِ الكَوارثَ في حَوادثِ السَيرِ و نُشوبِ الحَرائِقِ في المَعَامِلِ و المَحالِ التِجارِيَةِ ..أنصتَ القَلبُ لِذبذباتِ الرَّاديو ..

كَانَ الدُكتور النَابُلسي يتَحدَّثُ عَنِ المَحبَّةِ ..

المَحبة ..ذَلِكَ السِرُ المَفقودُ ..

وإن أَردتَ أَن تَكتَشِفَ المَحبَةَ و تَشتمَ عُفونَتَها علَيكَ بِالتَوجُهِ إِلى القَصرِ العَدلي ، و اشتمَ مَا شِئْتَ مِن قَضايا فيها مِن قِلَةِ الحَياءِ ما يُشَوهَ حُبَّكَ لِهَذِهِ المَدينَةِ ، هُنا الكُلُ يُغَنّي عَلى لَيلاه ..

لا زِلتُ أتجَسَسُ على سَكينَةِ ذَاكَ الشَابِ ..

حَتى طَلبَ مِنَ السَائِقِ أَن يُنزِلَهُ أَمَامَ جَامِعَةِ دِمشق ..

بَدأتُ أُفَتِشُ في حَقيبَتي عنِ المَال !!

يا إلَهي ..لَقد نَسيتُ أن أضَعَ المالَ في حَقيبَتي ، فَرُحتُ أتَصببُ عَرَقاً مُعتَذِرَةً مِنَ السَائِقِ :

ـ أنَا آسِفَة يا عَم ، لَقد نَسيتُ المَال في المَنزِلِ ..

ـ لا بأسَ يا عَمي ، الله يَسَامحك ..

و لكَن تَدخَلَ ذَلِكَ الفَتى ، أخرَجَ الأُجرَةَ مِن جَيبِهِ ودَفَعَها عَني ، لَقَد تَمَنَيتُ أن تَنشقّ الأرضُ و تَبتَلِعَني ..كَم هُو موقِفٌ مُحرِجٌ

بَينَ بَسمَةٍ على شِفاهِ الخَجَلِ ، و تَوتُرٌ على مَلامِحِ الإحراجِ ، رُحتُ أشكُرُهُ ، مُنكَسِرَةً أمَامَ أدَبِهِ و ذَوقِهِ ، مَدينَةٌ لَهُ بما صَنَع مَعي ..

كَانَ فِيهِ مِنَ الوَسامَةِ و الخُلقِ العَالِي ما أجبَرنِي أنْ أقِفَ مَعَهُ بُرهَةً مِنَ الزَمَنِ مُستَغلَةً صَنيعَهُ :

ـ أنَا أشكُرُكَ يا أخي ، كَيفَ أَرُدُّ لك هذا الجَميل؟

إنَّها المرّةُ الأولى التي أتحدَّثُ فيهَا مع شَابٍ بِسِنّي و يَكبُرُني خُلُقاً و خَلقَاً ، كُنتُ دائِماً في حِجرِ أُمّي ، تَمنَعُني مِنَ الإختِلاطِ بِالذُكُورِ ، حِفَاظاً على عاداتِنا و تقاليدِنا و دينِنا كما كَانت تَدَّعي ..

أرتَجِفُ أمامَهُ كحمَامَةٍ قُطِعَ عُنُقُها ، ابقَى نَظَرَهُ خفيضاً ، وكانَ مُنصِتاً لي ، كأنَهُ كانَ يُربِّتُ على رَعشَاتِ قَلبِي ..

ـ و لا يهمّك يا أُخْتي ..

أخرَجَ مِن جَيبِهِ عِشرونَ ليرَةٍ سُورِيَةٍ ومدَّ بِها يدَهُ إلِي ..

ـ رُبمَا تَحتاجينَها في العودَةِ ..

سَقَطَ قَلبي إحراجاً ، وجَفَّتِ الدِمَاءُ في وَجنَتي خَجَلاً, موقِفٌ رُجوليٌ سَبَقَ سِنَّهُ الذِي يَتساوى مَعَ سِني كمَا يَبدو لي ..

مَا هَذا الضَعفُ أمَامَ سَكينَتِهِ ،لا زَالَت يدُهُ ممدودَةٌ إليَّ بإلحاحٍ كي آخُذَ المالَ مِنهُ ..

ـ خُذي هَذا المَبلَغَ البَسيطَ ، إنَّما المُؤمِنونَ إخوةٌ ، رُبَّما تَحتاجينَهُ في العَودَةِ ، و إن تَأخرتِ عَنِ المَنزِلِ فَلعلَّ أهلَكِ سَيتَضايقون !! ..

ـ خُذي أُختَاهُ و لا تَخجَلي ، فَنحنُ إخوةٌ في الله ..

و بِرَغمِ إصرارهِ رُحتُ أرفُضُ ، مَعَ أنَني كُنتُ مُقتَنِعَةً بِكلامِهِ ، لكنني وافَقتُ أخيراً قائلةً:

ـ يا أخي سَوف آخُذُها .. و لَكن يَجب أن أُعِيدَها لكَ .. هَذا دَين ..

ابتَسمَ القَدَرُ على حَافَةِ الطَرِيقِ ، و لكَنني لَمْ أعِرف لِما ابتَسَمَ ، كانت إبتِسامَتهُ ضَبابِيةً ، لَعلَّها ابتِسامَةُ إعجابٍ أو تَهكُمٍ أو سُخريةٍ أو لهُ في إبتسَامَتِهِ مَآرب أُخرى ..

إنَّهُ القَدَرُ إذاً ..

نَأتِيهِ بِطُهرِنا طائِعين ..

ويأتينا بِإبرَتِهِ و خُيوطِهِ ..

على طَاوِلَتِهِ يَمُدُ نَصاعَ بَياضِنا ..

وبِمِقَصِّهِ يُجزِئُنا، ويَجعَلُ مَقاسنا على حَسَبِ مِزَاجِهِ، ، يُقطِّعُ أوصَالَنا بِلا تَخديرٍ ، ويُخيطُنا بِإبرَةِ الألَمِ مُتناسياً بِأَنَنا مِن لَحمٍ ودَمٍ.

هَا نَحنُ إذاً ..

يوقِفُني القَدَرُ على حافَةِ الإِقبَالِ و الإِدبارِ ..

ويُحرِجُني و يَدفَعُ بِي إلى أوّلِ مَوقِفٍ إرتِجَالِي ، أمَامَ جَماهيرِ الصَباحِ أخذتُ المالَ مِنهُ .

هَل هَذِهِ النُقودُ كَلِمَةُ سِرٍ لِبِدايَةِ عَامٍ جَديدٍ !؟ وهَل كُلُ بِدايَةِ عامٍ لها شِفاهٌ تُخبِرنا بِها عما تحمِلهُ لنا بَين صَفحَاتِها...

كَيفَ لِفَتاةٍ تَحمِلُ مِنَ الهُدوءِ و الذَكاءِ في آنٍ واحدٍ أن تَصنَعَ مِن كِبرِيائِها كَعكَة إِحراجٍ ، و تعرِضُها لِلعَامَةِ و أمَامَ الذُبابِ !!

ابتَسمَ الفَتى ، و سَقطُ جَريحَةً أمَامَ لُطفِهِ .. أشياءٌ غَريبَةٌ قَامَت بِسحبي إلى مُنعطَفِ التَوتُرِ و التَعرُقِ ، طأطأتُ رأسي كالذي أكتُشِفَ أمرهُ عِندما سَلَّمَ وَطَنَهُ.

خَائِنَةٌ أنتِ لِلذاكِرَةِ ..

ـ حَسناً أُختي يَجِبُ أن انصَرِفَ ، وغادَر ذاك الوسيمُ الدِمشقي

تارِكاً إيايَّ خلفَهُ لِلأَرصِفَةِ وَسَطَ غُبارِ الذُهولِ ، و سَارَ، مُرتَدِياً أَدَبَهُ ، وَثيقَ الخُطى ، وخَفَقَ القَلبُ خلفَهُ في رَعشَةِ صَباحٍ.

إنهَا جَامِعَةُ دِمشق ..

كُلِيَةُ الآدَابِ .. قِسمُ اللغَةِ العَرَبيةِ ..

إذاً أنَا هُنَا مُنحَدِرة من سُلالَةِ الكَلمَاتِ ، أتيتُ إلى السُطوِر الأمَامِية مُتوضِئةً بِطُهِر البُيوتِ المُغلَقَةِ على أسرَارِها ..

أتيتُ الجَامِعَة عَلناً ، مُرتَدِيَةً ثوبَ النِسيانِ ، و مُتَخفِّيةً بِالتَقوى ، و لا أعلَمُ مِنَ التَقوى سِوى الإختِفاءِ خَلفَ العِباراتِ العَابِرَةِ لِلسَرابِ ..

قَاعَةٌ مَخنُوقَةٌ بِالنشَاطِ و الثَرثَرَةِ التَافِهَةِ ، أصواتُ المُراهِقينَ و رَائِحَةُ مُستَقبَلِهم لا تُبَشِرُ بِخَيرٍ ، لأنَّ هَذِهِ الأدمِغَةَ أتَتَ إلى هَذِهِ القَاعَاتِ مُرغَمَةً و مُكَرهَةً ، لا فِكرةَ لديهم عما يفعلونَ هنا !!

و إن سَألتَ أحدَهُم !!

مَا الذِي جَاءَ بِكَ إلى هُنا ؟ ..

إنَّهُ لا يَعلَمُ الإجَابة ، و لَكِن هُنَاكَ منفَذاً وَاحِداً سَيجعَلُكَ تَقعُ بِالحَيرَةِ ، سَيقول لَكَ مَثلاً :

إنَّ نِتَاجَ التَوجِيهي و مَحصولِهِ مِنَ العَلامَاتِ لا يؤهّلني إلا لِدُخُولِ كُليَّةِ الآدَابِ و قِسمِ اللغُة العَربيَةِ حَصراً ..

و إن سألتهُ سؤالاً آخَراً ، عن التخصصات المحببة إليهِ أو عن أحلامِهِ ، ستأتي الإجَابَةُ طَبعاً على مَقاسِ أحلامِهِ مُتنَاسِياً بِأنَ كُلَ عِلمٍ و اختِصاصٍ جَامِعي عِلمياً كَان أو أدَبياً هُوَ أمَانةٌ و لَيسَ لُعبة تَمنِّي أو تَباهِي أمَام الخَلقِ ..

سَيقولُ لكَ بِأنَ أُمنيَتهُ كانت أن يَدخُلَ كُليَةَ الطَبِ ، و إن لم يُحَالِفهُ الحَظُ فَالهَندَسة.

أُنظُر حَولكَ مَا الذِي يَحدُث على هَذَا الكَوكب !؟

نَحنُ كَفِتيةٍ نُحدِدُ مَصِيرنا بِما نَحصُدُهُ من شَهاداتٍ مُتَخطِينَ الإبدَاعَ الدَاخِلي الذَي لا يُشبِهُ أيَّ إبدَاعٍ ، إنَّ التَميُز و الإبداعَ في قناعتي لَيسَ لهُ أيةُ قَواسِمَ مُشتَركَةٍ بينَ من يَحصِدُ مُستَقبَلَهُ بِشَهادَةٍ جامِعيَةٍ و بينَ من يُبرِزُ ذَكائَهُ بِاكتِشَافٍ ما يَخدِمُ بِهِ بَني البَشَر لِلتَعايُشِ مَعَ إنسانيَتِهم ..

و للأسفِ الشَديدِ فإنَّ كَثيراً مِنَ البُلدَانِ فَقدَتِ العُقولَ الذَكيَةَ و الأدمِغَةَ المُبرمَجَةَ على الإكتِشَافاتِ و إبرازِ النَظَرِياتِ التي تَصُبُ في مَصَلحَةِ خِدمَةِ البَشَرِ و تَسهيلِ أُمورِ حَياتِهم

، عِندما ربطوا نَجاحَ الإنسانِ بِكَميةِ حِفظِهِ لا بِمدى تَمَيُزِهِ فيما يُحِبُ ..

أُنظُر إلى طَلَبَةِ كُليَةِ التَارِيخِ ، طالع في ملامِحِ وجوهِهِم جَيداً ، واسأل عن مدى اهتمَامِهم بمادَةِ التَارِيخِ ، مَعَ أَنَني لا أؤمِنُ بِالتارِيخِ ، أكثر مَا أؤمِنُ بِهِ هُوَ المُستَقبل ، سَتَجِدُ بإنَّ طَلَبَتنا هُم بِالفِعلِ مُجبَرِينَ على دِراسَةِ التَارِيخ ، مع أن هُنَاكَ من يُرِيد دِراسَةِ الفُنونِ الجَمِيلة ..

نَحنُ قَبحنا العِلمِ بِطَمَعِنا ، و جَعلنَاهُ مَصدَراً لِلأطمَاعِ ، شَوّهنَاهُ بِالمَراكِزِ و الوَجَاهَةِ ، فَقَط مِن أجَلِ الألقابِ.

لو تَعرَّى هذا المُجتَمَعُ لبانَ نَتَنهُ ، و لإستنشَقتَ رَائِحَةَ عَفَنِهِ ، خَدعوا شبابنا عِندما رَفعوا من إختِصاصِ الطِبِ و جَعلوا بَقِيَةَ الإختِصاصاتِ في خَبرِ كَان.

لَقد تَوقفَ تَطوّرُ العُلومِ بِكَافَةِ إختِصاصاتِهِ عِندما سلَّمنا الأمرَ لِغيرِ أهلِهِ ، و رَفعنا من مَقامِ إختِصاصٍ على حِسابِ إختصاصٍ آخر ..

نَسوا بِأنَ هَذا المُجتَمَعَ مُتَكامِلٌ بِكَافَةِ إختِصاصَاتِهِ ، بِأطِبائِهِ و نَجّارِيهِ و مُهندِسِيهِ و إعلامِييهِ و حَتى بِطَباخِيهِ ..

نَحنُ نُتَمِمُ بَعضَنا بَعضاً ، و الفَخرُ و الهَيبَةُ لِمَن أتى بِالجَديدِ ليسَ مَن حَفِظَ عن ظَهرِ قلبٍ المُجَلدَاتِ و بَدأ يُقلِدُ الغَيرَ مُستَغبياً عُقولَ بَني البَشَرِ حتى يُقَالَ عَنهُ بِأَنَّهُ عَالِمٌ.

لِلأسَفِ نَحنُ من نَصنَعُ المغرورينَ بِأيدينا ، كما نَصنَعُ الطُغاةَ بِالتمجيدِ والتصفيقِ والنِفاقِ.

حَرَمُ الجَامِعَةِ ..

وجوهٌ جَديدَةٌ ، و أحلامٌ مَجيدَةٌ ..

المَجدُ لِلأحلامِ ، و المُستَقبَلِ .. آهٍ مِنهُ كم هو مُتعِبٌ ! ..

بَدأتُ أمشي على حُلُمي بينَ أروِقَةِ الجَامِعَةِ ، باحِثَةً عن قَاعَةِ المُحَاضَراتِ ، أُفتِشُ عن خَلَلٍ يَعرفُني و لكنّي لا أعِرفُهُ ، شَيءٌ فِي الجَوفِ فَارِغٌ مِن كُلِ مُقوِماتِ الحياةِ ..

بِتُ أتساءل !! ..

مَاذَا يَفعلنَ الفَتَياتُ بِهَذا العُمرِ ! ..

و مَا السِرُ خَلفَ هَذا الجَسد الخَاوي من كُلِ مُقوِمَاتِ العَجزِ و التَنقيبُ عَنِ لُقمَةٍ من كَبِدِ العَاطِفَةِ.

لِما البَحثُ عَنِ الحُبِ جَرِيمَةٌ؟!.

أيُعقَلُ بِأَنني مُتَعَطِشَةٌ لِلحُبِ؟ أم أنهَا أضغَاثُ حُبٌ فَقط ؟، إنَّ الإجَاباتِ عَن تَسَاؤلاتِ المَشَاعِرِ والتَعقِيداتِ العَاطِفيَةِ عَلَينا بِإحالَتِها إلى أهَلِ الهَوى.

فَاسألوا أهلَ العِشقِ إنْ كُنتُم لا تعلمون !! ..

من هُم؟ و أينَ هُم؟ فِيمَا مَضى كُنتُ ابتعِدُ تماماً عن مجالِسِ قِصَصِ الحُبِ التي تدورُ عادةً بين الفتياتِ في الجامِعَةِ و مَا إن تبدأ إحْدى الزَّميلاتِ بِروايةِ قِصَةِ حُبٍ ، أسارِعُ بالابتِعادِ عنها ، ظَناً مني بِأنها صَدِيقَةُ سُوءٍ.

أينَ هيَ صَديقَتي خُلود لِتُنجِدَني؟

لَقد جَمعتنَا الطُفولة خَلفَ مَقاعِدَ الدِراسَةِ ،

وفَرقتنا النتائِجُ النهائيةُ لِلعامِ الدِراسِي الأخيرِ قبل الجامِعةِ والذي حددَ مُستَقبَلَنا.

إنَّها في قِسمِ التَارِيخِ ، ضَحِكتُ و بَكيتُ في ذاتِ الوقتِ إنَّها تَكرَهُ مادَةَ التَارِيخِ ، التَارِيخ الذِي لا نَعرِفُ مِنهُ سِوى خُدَعِهِ الصَدِئةِ التي تجْرعنَا سُمومَها مُذ أن بِيعَ الوَطنُ لِعِصَابَةٍ أودت بِحَياةِ الكَثير من أبنَاءِهِ الوطنيين.

التَارِيخ ..

مَادةٌ سَاخِرَةٌ ، تَستَخِفُ بِمشَاعِرِنا ، و تَحسَبُ بِأنَنا أَغبياء ، و لَكِن مَا إن قَرأنَاها و إبتَلَعنا أكَاذيبها حتّى لُمنا أنفُسَنا.

نَحنُ من نُصَفِقُ ، نَحنُ من نُمَجِدُ ، نَحنُ الجُناةُ ، و نَحنُ الضَحية ، و التَارِيخ يُسجِلُ ، و الله يَقول

و مَا ظَلمنَاهُم و لَكِن كَانوا أنفُسَهُم يَظلِمون.

كُلُ مَا يَشِي بِفَضائِحنَا فإنهُ يُلَّخِصُ تَارِيخَنَا بِبِضعِ كَلِماتٍ ، بَل بِحِمَمٍ مِنَ اللكَماتِ.

لا أُحِبُ أن أستنجِدَ بِرُفَاتِ المَاضِي ، لأنَنِي لم أعِشهُ أبداً ، فَأنَا كَأُنثَى مُجرَدُ رَقَمٍ في هَذَا الوَطنِ ، ولا أُحدِدُ مَصِيرَ الوَطنِ ، فَأنا لَستُ كمَن يُحدِدُونَ مَصيرَ الوَطنِ و مُستَقبَلَهُ ، لأنَ مَاضيهِ مَسلوبٌ و مُنقَلِبٌ عَليهِ ، و مُستقبَلُهُ في جيوبِ لُصوصِ الوَطَنِ ، لِصٌ وسيم !! ..

طَبِيبٌ لِلعُيونِ ، هَتفنا لهُ بِدِماءِ العُيونِ.

فَي الصَباحِ و المَساءِ ، و قَبلَ النُومِ و بَعدَ النَومِ ، و في بيتِ الخَلاءِ و خَارِجِ دَورَةِ المِياهِ ، صُورهُ في كُلِ ثُغورِ الوَطَنِ ، بينَ شُقوقِ الألَمِ ، على جِراحِهِ المُلتَهِبَةِ ، و أمَامَ نُورِهِ الضَئيلِ ..

أنتَ كَمواطن فإنَ مِهنَتَكَ الصَباحيَةَ في كُلِ يَومٍ أن تَستَمِع و تَقرأ و تَرى شَبحَ الطَبِيب الذِي وَرِثَ مِهنَةَ الطُغِيان عن وَالِدِهِ الطَاغَية ، ذَاكَ المُجرِمُ المُنقَلِبُ على الوَطَنِ و المُواطنين ، سَفَّاكُ الدِماءِ ، الذي أعَادَ الوَطَنَ إلى العُصورِ الخَاليَةِ مِنَ الحَضارَةِ.

و لأنَنا مَاشيَةٌ تُسَلَمُ من طاغيَةٍ لِطاغيَةٍ ، فَعَلينا الإلتِزام بِعُقودِ مَن بَاعَنا و ابتاعنا ، نَحنُ جُزءٌ و لا يَتَجزَّأ من هَذا السِجنِ الكَبِير ، فَعَلينَا أن نُقَدِمَ فروضَ الطَاعَةِ وصكوكَ الغُفرانِ لِلطاغيَةِ و الحاشيَةِ الآثِمَةِ الجاثِمَةِ فوقَ صدرِ الوَطَنِ.

هون عَليكَ أيُهَا الوَطن !! ..

مِنَا مَن يَعيشُ عَشرَ سَنواتٍ و لا يَحتَمل ، و منَا من يَعيشُ العِشرينَ ، و منَا من لَدَيهِ صَبرُ أيوبٍ فَيبلُغُ السِتينَ أو السبعينَ من العُمرِ و أمَا من بَلغ المِئةَ عامٍ فَذَاكَ من كانَ مدمِناً على اِبتِلاعِ حبوبِ اللامُبَاللاة.

وَحدَهُ مَن سَقَطَ سَهواً مِن بَطنِ أُمِهِ و لَمْ تَكتَمل مَلامِحُهُ بَعد فَقد نَجا ، نَعم و رَب الكَعبَةِ قَد نَجا من قَذَارَةِ هَذَا العالم ، لم يَأتِ و لم يحبو ، و لم يَمشِ ، و لم يَشقى ، لَمْ يَعرِف الحُبَ و لا البُغضَ و لا الحِقدَ و لا الكَراهيَة ، كَأَنَّهُ أحسَ بِمَا سَيحدُثُ لَهُ ، ففضَّل العودَةَ إلى رَحِمِ الأرضِ ، لعتَمةِ الأرحَامِ و لِظُلمَةِ القُبورِ فهي خيرٌ من نورِ نِفاقِ أهلِ الأرضِ.

هُنَا أمَامَ هَذا الوَطنِ الذِي تَلِفتْ أعصَابُهُ و أدمنَا عليهِ شَيخوخَتَهُ ، و لم نَستَمع لإنينِهِ ، كُلَ يَومٍ يَهمِسُ في آذانِنا ، لا يَهمسُ خَوفاً ، بَل يَهمِسُ نِزاعاً ، و تَعَباً و شَقاءً ، قَائِلاً لَنا :

إن لَمْ يَستُركَ ثَوبُكَ ، فَسيفضَحُكَ نِفاقُكَ، نَحنُ من فَضَحنا أنفُسَنا أمَامَ عَجزِ الوَطن.

سَلَّمَ أجدادُنا هَذا الوَطنَ بِيدٍ طَاغَيةٍ سَلبَ مِنهُ أمنَهُ وأمانَهُ و جَعلَ من أهَلِهِ حُفاةً عُراةً لا حَولَ لهُم ولا قوة لا يملِكونَ إلا أضغاثَ كَرامَةٍ ..

لا تسأل عنِ الكَرامَةِ يا صَدِيقي ..لا تسأل عن كرامَةٍ في وطَنٍ مغتصبٍ بِكُلِ ما فيهِ من أثاثٍ بشريٍ وحجري.

فَمُنذُ أن تَلِدُكَ أُمُكَ إلى أن تُسَجّى في بَطنِ التُرابِ و أنتَ تَتَجرَعُ الذُلَ ، في آخِرِ حَياتِكَ و أنتَ على فِراشِ الإرِث و المَطَامِع ..

وأمَامَ المَوتِ سَتقتَنِعُ حينها بِأنَك نشأتَ على المَذَلَةِ و العُبوديَةِ و قُيودٍ مَا أنزَل الله بِهَا من سُلطَان.

تُطوى القُبورِ على المَوتَى فَتستُرُهُم ..

و في القُصورِ و في السُلطَانِ مَوتَانَا ..

و لا تَموتُ على حَدِ الظَبى أنفُسٌ ..

حتى لَقد خَجِلت مِنا مَنايانا ..

تَنتَهي كَرامَتُكَ هُنَا على شَفير الثُقبِ الذِي تَخرُجُ بِهِ إلى الظُلمَةِ لا إلى النُورِ كَمَا يَزعمُ مُنجِّمو الطَبِ و القَابِلاتِ القَانُونياتِ ، عِندما تَخرجُ مِن رَحِمِ أُمِكَ تَبدَأُ بِالزَحفِ لتنتهي حياتُكَ وأنت لا تزالُ تزحفُ ، فَلا مَكَانَ لانتِصابِ القاماتِ في هذا الوطن ، لأنَ سَقفَ الوَطَنِ مُنخَفِضٌ جِداً ،

لأنَ الآباءِ و الأجدَاد رَحِمَ اللهُ من رَحَلَ مِنهُم ، لم يَرفَعوهُ بِكَرامَتِهم ، بِل رفعوهُ بِالذُلِ و السَمعِ و الطَاعَةِ عندَ الذِي لا تُسمعُ لهُ طَاعَةً ..فما ارتفعَ.

لا مَكَانَ لِلتوبَةِ ، و العَودَةِ إلى حُضنِ الوَطنِ ، و لا مَكَانَ لِلعَفوِ و الغُفرانِ ، إلا بِكَسرِ الأنا ، الأنا التِي نُعاني مِنها و مِن مَرَضِها الذي أفسَدَ إخلاصَنا لِلوَطنِ.

هُنا و على بَلاطِ الوَطَنِ ..

أقِفُ أمَامَ ذَاكِرَتِهِ مُدجَجَةٌ بِكُلِ وَسَائِلِ الضَعفِ ، ولأنَنَي جُزءٌ من هَذِهِ القُطعَانِ التي تَجُرُ خُطاها كُلَ صَباحٍ إلى المَجهُولِ ، فَإنني مُفعَمَةٌ بِاكتِشافِ المَجهُولِ ، و مَا تُحيكُهُ الأقدَارُ لي ، بعدَ أن قَطَعَ منِي العُمرُ سَبعَةَ عَشَر عاماً ، أنا هُنا أُواجِهُ المَجهُولَ بِجَهلي عَن ما يُرسَمُ لَنا من مُستَقبلٍ ضَبابيٍ مليءٍ بِالتَخلُفِ و الرَجعيةِ.

العَالم كُلُهُ يَتَقدَّمُ ، و نَحنُ لسْنا بأقلِ أهميَةٍ عَن هَذا العَالَمِ ، و الكُلُ يُثبِتُ وجُودَهُ بِالتِقنياتِ التي مَللنا من رؤيَتها أمامَ شَاشَةِ التِلفَازِ الصَغيرَةِ ، نَحنُ كَذَلِكَ لَنا أَحلامُنا الشَهيَةُ ، تِلكَ الأوهامُ الصَغيرَةُ التي نَلعَقُ دَسَمَها في خَلوَاتِنا.

دَقق مَعي .. أوهَامٌ و أحَلامٌ و مَجهُولٌ ...

ثلاثُ كلِماتٍ مَعقودَةٍ بِمُستَقبَلٍ مَغبُونٍ ..

و هَا أنا اليَومَ هُنَا ..

أُريدُ أن أدخُلَ صِراعاً مَرِيراً مَعَ القُطعَانِ لا إلى أهدافِنا ، بَل إلى القَبرِ ، و كُلَمَا تَقدَّمَتُ في الأحلامِ و الأوهامِ و

المَجهولِ على سَيفِ المُستَقبَلِ ، كُلما تَقدمتُ إلى المَوتِ أكثَر.

نَحنُ هَكَذا بَنو البَشَرِ نبتَهِجُ بِما ضَاعَ مِن أعمارِنا ، و نَدفَعُ ثَمنَ الضَياعِ بِالإحتِفاءِ بِهِ كَبِرنا ، و زَادَ عُمرُنا فرحَةً زائِفَةً ..

كُلُنا نَفرَحُ بِتَقَدُمِ أعمارِنا ، و نَكسُوا الجُدرانَ بِالزِينَةِ ، و نفترِشُ الطاوِلَةَ بالحلوياتِ ، وأهمُ ضيفٍ في حفلاتِنا الزائِفَةِ هي الكَعكةُ الكَبيرةُ المُغطَاةُ بِشُموعٍ تَذوبُ رَغماً عَنها لِتروي قِصَةَ السِنين التي أفناها صاحِبُها بينَ جَدٍ و هَزلٍ ..هَكذا نَحنُ نَفرحُ بِكُلِ شَيءٍ زائفٍ ، نَشعُر بِأنَنا ألقينا عن كاهِلِنا حِملاً ثقيلاً كانَ قَد خنَقَنا ، فَأهلِي الآن هُم فِي قِمَةِ السَعَادَةِ لِأنَني أصبَحتُ في أعيُنهم نَاضِجَةً و جَاهِزةً لِلبَيعِ.

و مَن يَمنعهُم !؟

و هُم من عَلمونَا بِأنَ طَاعَةَ الآباءِ مُعلقَةٌ بِطَاعَةِ اللهِ.

لا مَكَانَ لمِشَاعِرِنا أمَامَ عَادَاتِهم و تَقالِيدِهم و شَرائِعِهم ، و لأنَ هَدفِي مُقَيدَ الأركَانِ أنا هُنا في قِسمِ اللغُة العَربِية في جَامِعَةِ دِمشق ، مَعَ أنَني أُحِبُ المُوسيقى ، و كَانَ حُلُمي دُخُول هَذَا القِسمِ ، و لَكني سَمعتُ أبي ذَاتَ سَهرةٍ يَقولُ : مُستَعِدٌ أن أَضَع ابنَتي في المَنزِلِ و لا أُدخِلُها قِسمَ المُوسيقى في جَامِعَةِ دِمشَق ، صرختُ يَومَها بِصَمتٍ ، و خَضَعتُ لِرغَبةِ أبي التي لا تُرفَضُ أبداً ، إنَّهُ المُدَبِرُ و المُخَطِطُ و المُفكِرُ الذِي يَرسُمُ لَنا مُستَقبَلَنا ، فَلا رأيَ لنا أمَامَ رَغبَةِ الوَالدِ إلا إذا كُنتَ ابناً عَاقاً و خَارِجاً عَنِ المُألوفِ ، و لأنَني ضَحيَةٌ لِلمألوفِ الذي مَللنا مِنهُ أنا هُنا ، ألبستني العَاداتُ و التَقاليدُ رِداءَ التَقوى ، مُضَمَخَةً بِالنَظَراتِ ، مُحَاطَةً بِتَطفُلِ الآخَرِينَ ، لا أعلمُ مَا الذي يُعجِبُ النَاسَ بِمُلاحَقَتي بِنَظَراتِهم.

أيُعقَلُ أن تَكونَ الحِشَمَةُ !؟

الحِشمَةُ أو الكِذبَةُ ، سَمِّها ما شِئتَ فلا تأثيرَ لِحِشمَتِكِ سَيدَتي أمامَ هَذا القَطيعِ ، حَتى لو تَستَّرتِ بِثوبِ الكَعبَةِ ،

فَعِندنا مِنَ الفَسَادِ الذُكوري مَا يروي ظمأ هَذَا العَالَمِ ، و يُخرِسُ شَرَهَهُ.

أهلاً بِكَ في الوَطن العَرِبي

المُسيطِرُ الوَحيدُ هُنا هو الذَكَرُ ، شَاءَ من شَاءَ ، وأبى من أبى ، و إن قُلتَ :

هيَ العَادَةُ ، سَيقولُونَ لَكَ ، بَل هيَ النَخوَةُ ، و إن قُلتَ الدين سَيقولونَ لكَ الرِجَالُ قَوامونَ على النِساءِ .. ذاتُ الأجوِبَةِ مُنذُ الأزَلِ .. مُنذُ أن ولِدَ أولُ عَرَبي على أرضِ هَذَا الوَطَن.

الرِجَالُ لا يُؤتَمَنُ غَدرُهُم أبداً ، يَتزوجونَ مَتى شَاؤوا ، و يُطلِقونَ مَتى شَاؤوا ، و يُزوجونَا مَتى أحبّوا ، و يُطلِقوننا مَتى غَضِبوا ، لا فَرقَ بينَ الأزمِنَةِ طَالما أنَّ المَكَانَ وَاحِدٌ ، و لا فَرقَ بينَ التَسمِيات طَالمَا الضَحيَةُ وَاحِدَةٌ.

نَحنُ في زَمانِ الرِقِ ، والإستعبادِ المقنن تَحتَ أغطيَةٍ غَبيةٍ تُسمى حُريَةُ المَرأةِ ، بينمَا نَحنُ الإناث محكومينَ بقَبضَةٍ

ذُكوريةٍ حديديةٍ ، مُعلقَاتٌ على مَشَانِقِ العاداتِ الباليةِ التي زَادَت من إحكامِ قَبضَتِهم الذُكوريةِ على أعناقِنا ..

هَل سَتستَمرُ هَذِهِ المَهزَلَةُ الذُكورِيةُ !؟ ..

و لتَستمر .. ما الذي أستَطيعُ تَغَييرَهُ !! ..

أنَا كَصَوتٍ لا يُسمَعُ إلا عَبرَ آلاتِ الزلازِلِ ، لَن أُنقِذَ و لو شَعرَةً وَاحِدَةً من حُرِيَةِ الأُنثى ، و على الرَغمِ من بِدايةِ حَياتِي كمَا قَالت لِي جَارَتِي المَجنُونَة يخزِي العَين .. لسه مَا شفتِي شِي من الدنيا.

هَل هَذِهِ بدَايةُ الحياةِ؟

الإكتِشاف ..

أن تَكتَشِفي كُلَ شَيءٍ يدورُ حَولَكِ ، و لا تَكتَشِفي مَا يَدورُ في جَسَدِكِ ، إنَّهُ جَسَدُكِ أيتُها الحَمقاء ، الوَجبَةُ الرَئيسيةُ لِشَهيةِ الرِجَالِ ، و النُقطَة الضَوئيَةُ لِلأُسرَةِ التي يُنفِقُ عليها الذُكورُ عُمرهُم بِأكمَلِهِ مِن أجلِ لَذَةٍ لا تَستَغرِقُ ذُروَتُها خَمسَة دَقائِق.

خَمسَةُ دَقائِق فَقط و عَليكَ أن تُفَكِرَ مَلِياً بِمَا حَدَث من تَسلسُلٍ زَمني و رَصيدٍ بَنكي أو غَيرَ بَنكي أُنفِقَت مِن أجلِ هَذهِ الليلةِ ..

مَا أتعَسَكِ مِن أُنثى !! ..

و الحُبّ ؟ ..

الحُب في مَحلِ رَفعِ فَاعلٍ ، أنفَقَ الكثير مِن أجلِ أن يَجُرَكِ كَذَبيحَةٍ إلى سَرِيرِهِ ، إستَمتِعي آنِسَتي بِأنيابِهِ ، إنَّها أحَلامُ ساعَةٍ ، و يَبدأُ الجَسَدُ بالتفتيشِ عن حَقيقَتِهِ ، هُوَ الحُبُ الذي لا تَكتَشِفيهِ إلا بَعدَ فَواتِ الأوانِ ، و رُبَّما سَتَقولين سينتهي الحُبُ بِلا مَالٍ ، سَينتهي الحُبُ ، و أنا أقولُ :

عِندمَا تُقَدِّمي جَسَدَكِ مُقَابِلَ المَالِ ، فَإنَّ الثَمَنَ سَيكونُ باهِظاً جداً مقابِلَ ما قُدِمَ سابِقاً.

هُوَ العِلمُ هَكذا ..

جَاءَ إلى هَذهِ الأقبِيَةِ الجَامِعيَةِ ، لا أهدافَ تَسنِدُهُ و لا مُستَقبلاً يُشرِفُهُ ، و لأنَّ الأحلامَ أضحَت شَرَفاً ، فَلا مَانِعَ مِن تَسلِيط الضَوء على شَرفِنا ، لأنَّ الشَرَفَ عِندنا مَعروفٌ و مُقَدَّسٌ ..

هَا هُوَ الشَرَفُ ، ها هُو العِلمُ يَتَقدَمُ شَيئاً فَشَيئاً ، يَحبو على استِحياءٍ ، يَجُرُ أثقَالَهُ الوَهميَةَ ، نَحوَ الفَراغِ الذِي لا يَمَلأُهُ سِوى الجَهلِ في ماهيةِ الأُمورِ ..

نَحنُ ترافِقنا نسائِمُ صَباحِ دِمشقَ ..

وَحدَهُ هَواءُ دِمشقَ من يملِكُ صَدى الحَنينِ إلى مَا بَعدَ الخُطَى المَغروسَةِ بِالفَحمِ ، و نَزَدَادُ تَقدُماً كُلما منَحتنا فيروزُ مِن صدَقاتِ صَوتِها ..

غَنِّي لنا يا مَقامَ اللحنِ الرَفيعِ ، فإنَّ طَريقَنا مُغتمٌ بِعَتمَةِ المَسيرِ

لا نُورَ لنا سِوى صَوتكِ المُشتَعِل بِالحَنينِ.

إذاً هُنَا دِمشقُ ..

في أَولِ يَومٍ في الجَامِعَةِ الكُلُ مُبتَهِجٌ ..

نَتَقدَمُ في العُمرِ نَحوَ المَجهُولِ ، و كُلُ يَومٍ نَخطو على أعمارِنا اِبتِهاجاً ، نَفرحُ بِاقتِرابِ خطواتِنا نَحوَ المَوتِ.

إِنَّها الخَطواتُ التي لا مَفَرَ مِن إمتِطائِها مُرغَمونَ على المَسيرِ رَغمَ جِراحِنا ..

و لَكِن إلى أين ؟ ..

إلى النِهاية ، و ذَلِكَ هُوَ الكَأسُ الذي دارَ على كُلِ النَاسِ كَما كَانت تَقولُ جَدَّتي ..

فَهِمَتِ الحَياةُ بِأمثالٍ حَفِظَتها أو رُبما وَرِثَتها عن أُمِها ، و نَحنُ كَأَحفَادٍ لم نَرِث مِنها سِوى الصَدى الصَدءِ و الكَلِماتِ..

امرأة في أُبهَةِ المَوتِ ، أمضَت حَياتَها تَكذِبُ على نَفسِها ، لَمْ تَتَعلم مِنَ الحَياة سِوى إِعدادِ الطَعامِ و غَسيلِ الأطباقِ.

مَاذَا كَانت تَفعَل كُلَ هَذا العُمر ؟

لو سَألتها أين ضَاعَ هَذا العُمر؟

سَتُجيبُكَ قائِلةٍ:

يا بُنِي .. لا يَملأ فَم بَني آدم سِوى التُراب ، خَمسةٌ و ثَمَانُونَ سَنة ، أنفَقَت صِباها و شَبَابهَا و كُهُولَتها في إِرضاءِ أبنائِها ، و اليَوم و هيَ على أبوابِ المرضِ تَتَلقَى المُواساةَ مِن أبنائِها لَيسَ مِن أجلِها ، بَل من أجَلِ بِرِّها ، الكُلُ يَكذِبُ على الكُلِ.

يَخَافُ الأبنَاءِ أن تَدورَ بِهِم الأيامُ و يَحدُثُ لَهُم كما حَدَث لآبائِهِم ، فَما كَانَ مِنَ الأبنَاءِ إلا و احنوا جِباههم لِلآباءِ مِن أجَلِ أن يَنقَلِبَ السِحرُ على السَاحِرِ.

وأنا هُنا أمَامَ مَبَاهِجِ الجَامِعَةِ و نِفَاقِ الطَلَبَةِ أتساءلُ هَل دَخَلَت جَدَّتي هَذِهِ الأروِقَةِ ، هَل أمسَكَت كِتاباً ، هَل فَكَّرَت بِمُستَقبَلِها؟ وهُنَاكَ جَمعٌ غَفيرٌ مِنَ التساؤلاتِ وددتُ طرحَها على جدَّتي ، و لَكِن ما فائِدَةُ الأَسئِلَةِ بَعدَ أن ذَبُلتِ الأهَدافُ ، و استَسلَمَ القَلبُ لِلأقدارِ، و انسَدَلَ الشَيبُ تارِكاً خَلفَهُ ظِلاً و ظلاماً.

و أما الأسنان فَقد أذابتها أحَداثٌ فانيَةٌ ، و دَعواتٌ باليَةٌ ، امرأة تَرى كُلَ مَا حَولها يَتَهَاوى و يَتَساقَط .

لَم تَعُد تِلكَ الأُنثَى الصَلبَةُ الشُجاعَةُ ، التي كُنَّ نِساءَ حَيِّها يحسبنَّ لها ألفَ حِسابٍ.

أشياءٌ مِن بَقايا طُهرٍ مُتَرسِبٍ على عَاتِقِها ، تُريدُ أن تَغتَسِل مِن آثامِها قَبلَ أن تَدخُلَ في عَالَمِ اللُحودِ و الدودِ.

مِسبَحَتُها ، سجَادَةُ صلاتِها ، مُصحَفُها ، حِجابُها الفَضفاضُ ، جِلبَابُها الدَاكِنُ ، خَاتمُ زَواجِها القديمِ ، و نَقيقُ فراغِها مِنَ الأُمنياتِ ، و أوامِرها التي لا تُرفَضُ.

كَأن تَزورَ المقاماتِ كُلَ أُسبوعٍ ، تَبدأُ مِن قَبرِ النَبي يَحيى في المَسجِدِ الأُموي ، مُروراً بِآلِ بَيتِ رَسولِ الله ، حَيثُ مَقامُ الحُسَين و السيدةُ رُقية و السيدَةُ زَينب و زَوَجَةُ النَبي حَفصة ، و أولياءُ الله الصالِحينَ.

كَالشَيخ أحمدِ الحَارون ، و عَبد الرَحمَنِ الشَاغُورِي ، و مُحَمد الهَاشَمِي وغَيرَهم مِن أُناسٍ لا يَضُرونَ ولا يَنفَعون أُنثَى أتعَبَتها الذُنُوبُ ، تَطوفُ حَولَ رِجَالِ الله ، تَتَمَسحُ بِالقُبورِ، و تُشعِلُ الشُموعَ ، و تَشُدُ شَرائِطَ الغُفرانِ على شَبابيكِ الأولياءِ ، و تُدشِنُ دُخُولها إلى الحَضرَةِ بِالزَغارِيدِ.

و نَاهِيكَ عَنِ الذَبائِحِ في كُلِ لَيلَةٍ من ليالي الشَهرِ إلى مَقامِ الَسيدة زَينَب تَقرُباً لآلِ بَيتِ رَسولِ الله.

تُرِيدُ أن تَرحَلَ بِأثَرٍ طَيبٍ ، تُرِيدُ أن تَموتَ على أكوامِ الصَدقاتِ و صُكوكِ الغُفرانِ ، و كَم من حِجَةٍ كانت قد حَجَّت؟! و كَم مِن عُمرَةٍ اِعتَمَرَت؟.

تَعُودُ إلى دِمشَقَ في كُلِ عَامٍ مُحمَلَةٌ بِالنُورِ ، و الهدايا ، و الدَعَواتِ ، و مَا كَانَ مِنا إلا أن نَتَحسَسَ سُكونَها لِنتبارك بِها ، و نَغتَنِمَ مَا بقي من طُهرِ طَوافِها بِبَيتِ اللهِ الحَرامِ ، قَبلَ أن تَضمَحِلَ حِجَّتُها ، كُنَّا نَخافُ عَليها ونخافُها.

بَينَ كُلِ زِيارةٍ و زِيارةٍ كَانت تَسَحبُ مِسَلَ لِسَانِها في وَسَطِ جَمعٍ غَفيرٍ مِنَ النِسَاءِ الثُقاتِ العُدولِ اللاتي يُؤتَمَنُ غَدرُهُنَّ و يَحفَظن السِرَ ، ليبدَأنَ جَلسَةَ الغَيبَةِ و النَميمَةِ بَعدَ كُلِ سَهرَةِ خَميسٍ ، و بَعد كُلِ لَطِيفِية ..

إَنَّها الطَاعَةُ الكَاذِبَةُ ، و الدُود الذِي يَسرِي في القُلوبِ ، و المَرضُ العُضالُ الذي يَصعُبُ على اللِسانِ التَخلُصَ مِنهُ ، و مَا تَنفَعُ الطاعَاتُ و اللِسَانُ يَقطِرُ سُمَّاً.

فَتَحتِ المَدارِسُ و الجامِعاتُ أبوابها و مَضينا إلى هَذِهِ الفَرحَةِ التي نَعرِفُهَا في بِدَاية كُلِ فَصلٍ دِراسيٍ ، و نَكرَهُها في نِهَاية كُلِ عَامٍ.

لا أعرِفُ أحداً هُنَا أنَا الوَحيدَةُ من صديقاتي من دَخَلَت هَذا التَخصُصَ ، أُفتِشُ على مَكَانٍ بَينَ أَكوامِ الطَلَبِةِ ، إنَّها الفَترَةُ الإنتِقالِيَةُ الأخيرَةُ قَبل أن نَتَخرَجَ لِلحياةِ.

بَدأتُ أتَرَصَدُ الأمكِنَةَ عَيناي تُنَقِبُ عن مَكَانٍ فَارغٍ وَسَطِ هَذَا التَوتُر تَكَادُ كُلُ الأمكِنَةِ تَغُصُ بِالطَلَبَةِ و أخيراً هُنَاكَ مَكَانٌ شَاغِرٌ أسرعتُ إليهِ ووَضَعتُ أحمالي بِسُرعَةٍ و أخذتُ نَفساً عَميقاً ، مُحَاوِلَةً أن أتَدَارَكَ سُرعَةَ الأُكسُجِين و أن أُعيدَ تَدَفُقَ الهَواءِ إلى طَبيعَتِهِ ، و ما إن نَظرتُ حَولِي حَتى وقَفَتِ الدَهَشَةُ على أعتابِ قلبي.. أنتَ ؟!

نَعم إنهُ أنَا..

و مَاذا تَفعل هُنَا ؟

لَقد التحَقتُ بِهَذا الإختِصاصِ ..

و مَا هَذِهِ الصدفَةُ ؟

بل قُولي ما هَذِهِ الأقدارُ؟!.

إنَّهَا الأقدَارُ إذاً ، تأتيكَ من حَيثُ لا تَحتَسب ، تُدمِيكَ سَاعةً ، و تُرَمِمُ جِراحَكَ تَارةً أُخرى ، و ما إن مَاجت بِكَ على أمواجِها ، حَتى أخذَتكَ إلى مُحيطِها ، حتى تَغِدرُ بِظَنِكَ ، لِتلفِظَكَ على شَواطِئها ..

إنَّهُ مَن دَفَع عَني المَالَ في الحَافِلَةِ الشابُ الخَلوقُ الذي فيهِ نَخَوَةٌ لم أرَ مِثلها أبداً ..

نَظراتُهُ و هُدوءُهُ و صَمتُهُ ، فِيه سِمةُ نَورٍ ، و عِطرُ بَخورٍ ، تَكَادُ تَجزِمُ بِأَنَّهُ مُلتَزِمٌ دينياً ، هيَ أخلاقُ أبناءِ المَسَاجِدِ شُعَيراتٌ على وَجهِهِ كالوَبرِ ، لَعلَّهُ يَستَحي أن يَحلقها ، أو لعلَّها آثَارُ تَقوى ، لأنَ النُورَ قَد تَمَكَنَ مِن وَجهِهِ ، نُورٌ غَريبٌ ، نُورٌ ضَبابِي ، نُورٌ مُلَوثٌ ، و لَكِنَّهُ جَميلٌ.

يا الله .. مَاذَا أنَا فَاعِلة !؟

أنَا أصِفُهُ بِشَاعِريَةٍ ، كَمَا تَصِفَ العَاشِقَةُ فَارِسَها ،

أستَغفِر الله و أتُوبُ إليه ، سَامحني يا الله لم أقْصد.

و هَل التَقوى بِحَاجَةٍ إلى أقنِعَةٍ مِن أجلِ أن نُخفيها ، و هَل النُورُ بِحَاجَةٍ إلى سِتارٍ حَتى نُخمِدَ وَهَجَهُ ، إنَّهُ شَابٌ يُشبِهُ النور.

نَظَرَ إليَّ قَائِلاً :

أنَا اسمِي مُحمَد البُغَا ، من الزَاهِرة القَديمة ، و هَذهِ السَنة أول سَنةٍ لي في الجَامِعةِ ، و أيُ شَيءٍ تحتَاجِينَهُ فأنا بِالخِدمَةِ ، و أتمنّى أن أرَاكِ بَعدَ المُحَاضَرَةِ.

أصابَتني لَحظَتَها سَكتَةُ تَوتُرٍ ، و تَعرُقٍ غَريبٍ أشعرُ بِهِ يسَيلُ من ظَهري ، و احمِرارٍ لَمْ أعتد عَلَيهِ من قَبل ، و أنا في صدْمَتي تِلك نَطقتُ ما لا أُريد النُطقُ بهِ قَائِلةً :

بِكُلِ سَرورٍ.. حلَّ صَمتٌ رَهيبٌ ، لم تَكُن لِلمُحَاضَرَةِ أيةُ هَيبَةٍ ، لأنَّ هُنَاكَ سُكونٌ و تَوتُرٌ و مَخَاضٌ في القَلبِ يَجتَاحُ أيةَ هَيبَةٍ ..

شَابٌ يُجَاوِرُني مَسَافَةَ صَمتٍ ، فِيهِ مسوح رَحمَانِيٌ ، طَاعِنٌ في الجَمالِ و الأناقِةِ ، أراهُ ثَلاثَ صُدَفٍ ، و يُنقِذُني فيهما اثنتان ، نَوعٌ غريبٌ مِنَ التَحديقِ في فَلسَفَةِ الحَياةِ ، و خَطواتٍ لا تَسمَعُ لَها هَمساً ، و رُكونٌ و سُكونٌ لم يَعرِف الإِصطِناعِ يوماً ، بَل إِنَّها ميزَةٌ و سَجيَةٌ لَيسَ لَماهيتِها نِفَاقٌ و لا شِقاقٌ ، شَابٌ على خُطَى لقاءٍ مُباغِتٍ لِلأشَياءِ ..

شَيءٌ وَاحدٌ رَاودَني حينها ، بَل بَعدَ بُرهَةٍ مِنَ الصَدمَةِ ، و هذا مَا يَدورُ في نِيةِ كُلِ أُنثَى عَربيَةٍ ، لأنَنِي كَأنثَى عَربية و في وَسَطِ هَذا الضَجيجِ الذُكوري الشَرِس ، الذي لا يَملأُ فَمَهُ سِوى التُراب ، هوَ السؤالُ الذي لا يُقاومُ :

مَاذا يُرِيد هَذَا الشَابُ منِي !؟ ..

هَل هِيَ مُحَاوَلةُ تَسللٍ ، أمْ أضغاثُ أحلامٍ؟!.

و لَكِن هَذا النَوعَ مِنَ الشُبانِ في اعتقادي ، لا يَدورُ في نيتِهِ سِوى الخَير المُطلق ، لأنَّهُ من قَبيلَةِ الصَمتِ و السُكونِ ، و من عائِلَةِ التَقوى على ما أظُنُ ، ومن قَومِ السَكينَةِ و الهَيبَةِ ..

بِتُ أُؤمِنُ بِالصُدَفِ ، وبِالأقدَارِ ..

لَعَلَّ القَدرَ طَاهٍ دَقِيقٌ في وصفاتِ أطباقِهِ ، لَعلَّ الصُدَف خَبيرَةٌ بِحياكَةِ الحُبِ!.

الحُب!!!

لم أقصِد أن أكتُب كَلِمَةَ الحُبِ ، و لم تَكن هَذهِ الكَلِمَةُ في قَلبِي أبدَاً ..

سألني القَدَرُ ، لِما تَتَهرَبين مِنَ الحُبِ ؟

لِما ؟!!

لا أعَرِفُ لمِا ! ، و لَكِن أعرِفُ أنَّ هَذِهِ الكَلمَة تُعَدُ عَيبٌ في مُجتَمَعٍ لا يَقتَاتُ الحُب فيهِ إلا على الفتاةِ.

وهَل الحُب بِحاجَةٍ إلى أَقنِعَةٍ.

يا صَديقي نَحنُ لا نَقَعُ في شِباكِ الحُبِ من أجلِ الحُبِ ، بَل نَقَعُ في زَنَازِنِهِ مِن أجلِ شَهواتِنا ، الشَهوَةُ جُزءٌ مِنَ الحُبِ ، نَعم صَحيحٌ كَلامُكَ ،و لَكِن لا يُفَسَّرُ هَذا المَنطِقُ هُنا ، يَجب أن تَهربَ بِحُبِكَ إلى أوطَانٍ أدركت الحُبَ مَودةً و لَيس شَهَوةً.

وعِندما تأتيكَ كَلِمَةُ حُبٍ في ذِهنِكَ تَحُجُ إلى نَفسِكَ الشَياطينُ مِن كُلِ فَجٍ عَميقٍ ، و عِندَها لا تَفسيرَ لِلحُب إلا بِعِدَةِ أشَياءٍ ، كَالأَسِرَّةِ السَاخِنَةِ ، و اللَيَالي الحَارّة ، و الأجسادِ المُلتَهِبَةِ ، و الشِفاه الغَارِقَةُ بِالنَشوَةِ ، و الصُدورُ العارِيَةُ على مَرأى الشَغَفِ ، و الأفخَاذِ المُنكَشِفَةِ لذُبابِ اللعَقِ

هُنَاك و على تِلكَ الشَهوة التي لا تَحتَمِل العِشرونَ دَقيقَةٍ أو أكثَر أو أقَل ، سَتذُوبُ الشَهوةُ ، و تَخمُدُ الرَغبَةُ ، و يَظهَرُ الحُب بَعدَ سَكرَةٍ جِنسيَةٍ قَد فَارقتَكَ مُنذُ لَحظَاتٍ ، استمتِعوا سَادَتي بِنهشِ اللُحومِ ، و لَعقِ الأعنَاقِ ، و قَضمِ الشِفاهِ ، و ما نَشوَتُكم إلا لَحَظةٌ.

قَرأتُ في أحدِ أحلامِي ..

فِي الكُتُب التي رَأيتُهَا في مَنامَاتِي ، و لَم تَلمُسهَا يَدي :

بِأنَ الحُبَ ذَاتَ خَرِيفٍ ، أسنَدَ ظَهرَهُ لِلغُرُوبِ ، واتكَأ على اصفِرارِ يَومٍ قَد رَحَلَ ، و لَكِنَ الحُزنَ كَانَ مَصِيرُهُ ، دَنوتُ مِنهُ مُلتَحِفاً بِدِثارِهِ ، قُلتُ ما بِكَ أيُّها الحُبُ ! ما الذي حَلَّ بِكَ!؟ ..

انكَسَرَ في عِزِ شَهقَتِهِ قَائِلاً :

إِنَّ أهلَ الحُبِ لم يَعرِفوا مِنَ الحُبِ سِوى نَشوَتِهِ وشَهوَتِهِ ، وقَد تناسوا مَودَتَهُ و إِخلاصَهُ ، و هَل بَعدَ هذا الحُزنِ حُزنٌ يا سَادة ؟

نَحنُ الدِمشقياتُ ..

رقيقاتٌ كالياسَمينِ ..

مُتَخفياتٌ بِدفئِ البُيوتِ العَتيقَةِ ..

لَمْ نَعرِف الحُبَّ إلا بَينَ الجُدرانِ البَاليَةِ ..

صَحيحٌ أنَّها باليَةٌ ، ولَكِنَّها مَحشوَةٌ بِالذِكرياتِ ، مُغطَاةٌ بِسماءِ الحَنانِ ، ذَلِكَ الحَنانُ الذي لنْ تَجِدَ لَهُ مَثيلٌ ، إنَّ الحُبَّ الذي يُطَرَّزُ عَبرَ شَاشَاتِ الهَوى كما نَعتَقِدُ ، إنَّهُ حُبٌ مَسحوقٌ مَنهوشٌ مُتَبَخِرٌ ..

حُبٌ ليسَ مَعقوداً بِالتقوى ، و لا باسمِ اللهِ ، و سُنَةِ رَسولِ الله ، إنَّهُ لَذُروَةُ الحَرامِ و الانحِلالِ و التَفكُكِ .. هَكَذَا تَعلمنا ، هَكذَا تَلقينا الحُبَ ..

نَصحونَا فَقَالوا :

لا تُغرَّنَّكُمُ الورودُ الحَمراءُ ، و لا الهَدايا المُغلَّفَةُ بِأشرِطَةِ الهَوى ، و لا بِأُبهَةِ الشَهوَاتِ ، إنَّها لأحلامُ ساعَةٍ ، إنَّها لأَوهامُ لَحظَةٍ ، و كُلُ شيءٍ سَيتَبخَرُ ..

نَصَحونَا فَقالوا :

إنَ حُباً يأتي بِالعِشقِ مِن أبوابِهِ ، لا مِن نَوافِذِ شَهوَتِهِ ، لَهو الحُبُ المُصَانُ بِسلاسِلِ الأَمانِ ، و هَل الحُبُ لَهُ أبوابٌ و نَوافِذ؟ دَائِماً كُنتُ أقولُ ، استَفتي قَلبَكِ و لو أفتوكِ إنَّ الحُبَ لَهُ فَتوى و مَأوى .. إنَّ الحُبَ لَهُ شِرعَةٌ و مِنهَاجٌ ، و لَكَ في العاشِقينَ من الأنبياءِ و الصالحينَ أُسوَةٌ حَسَنَةٌ ، استَفتي قَلبكِ و لو أفتوك ..

دَائِماً ما كُنتُ ألجأُ لِقَلبي في هَواجِسِ الهَوى ..

الهَوى !! ..

نَعم الهَوى ، و لكن أين و متَى و كَيف هَذَا ما سأعرِفُهُ مع هَذا الفَتى.

انتَهَت المُحَاضَرَةُ ، و لكن ما يَجولُ في خَفايا القَلبِ لم يَنتَهِ ، و لَكن مِن هُنَا بَدَأتُ و يا لَيتنِي لم أُعطِ لِقلبِي هَواهُ ..

أكتُبُ في هَذِهِ اللحَظَاتِ الخَالِية من ضَجِيجِ البَشَرِ ، و في الثُلثِ الأخيرِ مِنَ اللَّيلِ أولِ اللقَاءاتِ أولى البِداياتِ أولى النِهَاياتِ و أقَساهَا ..

لمَا اختَرتُ الثُلثَ الأَخيرَ مِنَ الليلِ ..

لأنَّ الله يَتَجلى إلى صَفوةِ القيامِ و النيامِ ، أرَادَ لهُم خُلوَةٌ مَعَ دَمعَةٍ مَعَ دَعوَةٍ ..

لا أعلَمُ ما الذي جَعلَني أشكو لِلوَرَقِ ..

رُبَّما بينَها و بَينَ اللهِ قَاسِمٌ مُشتَرَكٌ في الطُهرِ الذِي لَمْ يُخَالِطهُ خُطوط .. إلا خُطوطي ..

خُطوطٌ مَحمُومَةٌ بِالسَوادِ ..

السَوادُ الذِي ذُقتُهُ مِن ظُلمٍ و قَسوَةٍ ..

لم أتلفَظ للهِ بِشهقَةٍ .. و لكن تَركتُ لِقلمي لِجَامَ الحِبرِ كما تَركتُ لِقلبي عَنانَ الحُبِ ..

قُلتُ لِذَاكَ الحُبِ أوجاعي الدرويشية :

أعطِنَا يا حُبُ ..

فَضَحِكَ كُلُّهُ لِنَخُوضَ حَربَ العَاطِفيين الشَرِيفة ...

فَالمَنَاخُ مُلائِمٌ ..

و الشَمسُ تَشحَذُ في الصَباحِ سِلاحنا ..

يَا حُبُ! ..

لا هَدَفَ لنا إلا الهَزِيمَةُ في حَربِكَ ..

فَانتَصِرْ أنتَ انتَصِر ..

و اسمَعُ مَدِيحَكَ من ضَحَايَاكَ ..

انتَصِر ! ..

سَلِمَت يَدَاكَ ! ..

وَعُدْ إلينا خَاسِرينَ .. سَالِماً ! ..انتهتِ المُحَاضَرَةُ الأولى في أولِ يَومٍ لِلجَامِعَةِ و لم أعِي مِنها شيئاً ، الشيءُ الوَحيدُ الذِي كَان يَجولُ في خَاطِري ذَاكَ الفَتى الذي قَبِلتُ دَعوَتَهُ ، و كَيفَ طَاوعتني نَفسي بِالمُوافَقَةِ ..

إنَّهُ قَلبي الذي أردَاني سُبُلَ العَمى ..

قَبِلتُ و عَميتُ و سِرتُ خَلفَ نَفسي التي أوبِّخُها حتى هَذِهِ اللَّحظَةِ ، و ما فائِدةُ التَوبيخِ و قَد أشبعتُ هَذِهِ الذَاكِرة بِرجُلٍ لا يُشبِهُ إلا نَفسَهُ ..

تَعثَّرَ قلبي بَعدَ أن انتَهَتِ المُحاضَرَةُ ، و قَالَ :

لِنَذهب إلى البوفيه ،وافقتُ وكأنَني ابنَتَهُ تُطيعُهُ ولا تَعصي لَهُ أمراً ، كَفِراخِ البَطِّ سِرتُ خَلفَهُ ، مُنبهِرَةٌ بِهِ بِصوتِهِ و صُورَتِهِ و رُجولَتِهِ ..

كُلُ شَيءٍ حَولي يَدورُ بِكُلِ مَا أُتِيت العُبوديَةُ مِن هَوى ، أمشي بِبُطءٍ كَما كُنتُ أمشي خَلفَ أبي عِندمَا يُريدُ أن يَشتَري لِي شَيئاً يُسعِدُني ، و هَل سَيفرَحُ وَالدي إن شَاهدَني أمشي خَلفَ شَابٍ لا أعرِفُ عنهُ سِوى نَخوتِهِ و طيبَتِهِ و أخلاقِهِ التي تَشي بِأسلمَتِهِ العاليَةِ !!

هوَ أبي ..

الذي كانَ دَائِماً يقولُ :

أنا أعرِفُ تَربِيَتي لأبنائي !!

يا إلهي .. لو أنَّ أحدَهُم قد شاهدَني معَ هذا الشابِ و أخبَرَ أهلي بِأنَّ ابنتَكُم تُجَالِسُ رَجُلاً غَريباً ماذا سَوف يَفعلونَ بي؟؟

قَبلَ شَهرٍ كُنتُ قد سَمِعتُ بِفتاةٍ ذهبت لِتَشتَري لأُختِها الصُغرى ثياباً مِن شَارِع الحَمرا .. و أمسَكَها أخاها الكبير في الطَريقِ ، و هَربَ الشَابُ بينَ المَمَرّاتِ و لَكِنّ الفتاةَ لَمْ تَنجو ، و ما كَانَ من أخيها إلا و أشبَعَها ضَرباً أمَامَ المَارَةِ

بِكُلِ مَا أُتِي العُنفُ من عُنفٍ ، حَتى تَعثَّرَت بِحَافَةِ الرصيف و سَقطَت على رَأسِها و فَارقَتِ الحياة ..

يا الله ..

مَا هَذا الظُلم !!

هَذهِ المَدينَةُ الغارِقَةُ بِالعُشّاقِ و أهلِ الغَرامِ ، لا يَتواعَدُ فيها الحُبُ إلا خِفيَةً ، و لَكَأنَّ الحُبَ جَريمَةٌ ، و مَا جُرمُ هَذا القَلبِ وسَطَ المُطارَداتِ و المُلاحقاتِ مِن نَظَراتِ المُتَطفلينَ ؟؟

الكُلُ يَكذِبُ في هَذِهِ العَاصِمَةِ المُؤنَثَةِ ..

حَتى عُلمَاءُ الدِينِ و الأولياءِ و الصالِحينَ و القِديسين و الخَوارِنَة و البطارِكة الكُلُ هُنا يَتَصنَعُ بِالتَقوى و الحُبُ في مَعزِلٍ عن هَذهِ المَظَاهِرِ القَذِرَةِ ..

يُقَالُ بِأنَّ للهِ اسمٌ أعظمُ من دَعاهُ بِهِ فَلن يَرُدَ الله دَعوتَهُ ، و هَذَا الإسمُ خَفيٌ لَمْ يَذكُرهُ لا نَبيٌ و لا وَليٌ ..

و قَد أرهَقَ العُلماءَ و أهلَ التُقى عُقولَهُم بِالبَحثِ و الإستنتَاجاتِ عن اسمٍ هُو أقربُ إلِيهم من حَبلِ الوَرِيد ، و والله لَو شَغَّلوا عُقولَهُم سَيعرِفونَهُ حَقّ مَعرِفَتِهِ ..

رَحِمَ اللهُ وَالِدَتي كَانت تَقولُ :

إن للهِ اسمٌ جَمِيل لم يُذكر في القُرآنِ و لا في السُنَّةِ و لا في الإنجيل و لا في كَلامِ الأحبارِ .

اسمٌ يَليقُ بِهِ ،

يُشبِهُ رَحمَتَهُ و كَرَمَهُ و جَمالَهُ و جَلالَهُ ..

اسمٌ فيهِ من الكَمالِ و الجمَالِ و الجَلالِ مَا يَجعَلُكَ عَاشِقاً لهُ و لأَوامِرِهِ ..

قُلتُ و مَا هُوَ !؟

قَالت رَحِمهَا الله :

الله .. هُوَ الحُب ..

و مَا دَعوتُ الله يَا مَحبوبِي أدرك عاشقةً لنُورِكَ ، إلا و أغَاثَ لَهفتي و قَبِل دَعوتي ، و تَدَاركَ انكِساري و ضَعفي ، و لَكَأنَّ الليلَ قد قَلَبَهُ بِكَفِ رَحمَتِهِ نُوراً و سُروراً ، و لَكَأنَّ صوتاً يَسري في سَراديبِ النورِ لِتعزِلَني عن هَذَا المَلكوتِ إلى مَلكوتٍ أشهى و أبهَى قَائِلاً :

يَا عاشِقة : ارفَعي رَأسَكِ ، و سَلي تُعطَين ، و اشفَعي تُشفَعي ..

سألتُهُ كَثيراً ، و أعطَاني مَزِيداً ، فَلم أنحَنِ لَهُ كَعبدَةٍ بَل كُنتُ و لا زِلتُ أخفِضُ لهُ كُلَ عِشقٍ و مَحبَةٍ ، لأنَّهُ حَرّرنا

سُبحَانَهُ مِن عُبوديَةِ البَشَرِ إلى عِشقِ رَبِ البَشَرِ ، و الذي نَفسي بِيَدِهِ مَا عَبدنا اللهَ خَوفاً إلا و زَادَ الخَوفُ و الضَعفُ فينا ، و ما تقربنا إِليهِ حُبَّاً و عِشقاً إِلا و أقامَ قِوانا و قَوَّمَ اليأسَ بين أضلُعِنا ..

لا تَعبُدُهُ ، لأنَّهُ سُبحَانَهُ و تَعالى لا يَحتاجُ عبادَتَكَ ، بَل أحِبَهُ و مُتْ في مِحرابِهِ عِشقاً ، لَيس مِن أجلِهِ بَل مِن أجلِ أن يُرمِمَ كَسرَكَ و يُسنِدَ ضَعفَكَ و يَمُدَ في حُبِّكَ لهُ ..

و مَا أحبَ امرئ أحداً لِغَيرِ وَجهِهِ ، إلا و عُذّبَ ، و تحوّل الحُبُ في قَلبِهِ نَارُ الله المُوقَدَةِ ، و مَا أحبَّ مُحِبٌ أحداً لِوَجهِ الله و كَرماً في طَاعَتِهِ إلا و أينَعَ الحُبُ طَاعَةً و امتَدَ في القَلبِ رَاحةً و واحةً فَوَّاحَةً ..

الحُبُ هُو الله ، و اللهُ هُو الحُبُ ...

و الحُبُ في الله سُبحَانَ اسمِهِ ، لَيسَ لَهُ مَكَانٌ لِلتَجرِبَةِ ، لأنَّ الإيمانَ بِهِ و بِحُبهِ لا يَقبَلُ التَجرُبَةَ و لَيسَ العِشق في الله حَقلاً لِلتَجَارِبِ ..

كُن على يَقينٍ .. و اعزُم الأمرَ على أن تُحِبَهُ و تُحِبَ مِن أجلِهِ قَناعَةً و اعتِقاداً ..

رُويَ في الأثَرِ :

بِأنَّ الإمَامَ الشَافِعي قَالَ :

مَا قَرأتُ سُورَةَ يُوسُفَ إلا و سُرِرتُ ..

يَأتيكَ أحدُهُم ليَقولَ لكَ :

لَقد جَرّبتُ و قَرأتُها و لم يَتغيّر شيء ..

يَردُ عَليهِ أهلُ الحُبِ :

نَعم أنتَ قُلتَها لَقد جَرَّبتَ ، و لكَن لَو قَرأتَها حُباً و عَقيدَةً و جَازِماً بِأنَّهُ سَيُبَدِلُ مَكَانَ الغَمِ و الألَمِ رَاحَةً و سَكينَةً لأبدلهَا الله .. و لنِمتَ في راحَتِهِ كما تنامُ العَروسُ في خِدرِها ..

هَنِيئاً لأهَلِ الحُبِ بِمَا صَنعوا ..

هنيئاً لأهلِ الهَوى بِما اقتنَعوا ..

و لَكن يَا تُرى ، هَل مَا يَجولُ في قلبي أمامَ هَذا الشَابِ حُباً صُحبةً عِشقاً !! ..

أنَا التي لم أرَ من فُتوَتي سِوى بَيتِ أهلي و مَدرَستي ، و لَكِن لِما كُلُ هذا التُوتُرِ ..

جَلسَنَا مُتَقابلينَ أمامَ الحياةِ ، يفصُلُنا حَاجِزٌ خَشَبِيٌ ، و شَهقاتٌ مِنَ الإعجَابِ ، قَالَ الشابُ الخَلوق .

سَوفَ أُحضِرُ ما نأكُلهُ و أعود ، انتَظِرِيني ..

مَا أجمَلها مِن كَلِمَةٍ ..

انتَظِرِيني

أنا الطِفلَةُ المُدَلَلَةُ ، الشَهيَةُ ، النَقيَةُ ، النَرجِسيَةُ ، البَريئَةُ ، التي كَانَت تَقِفُ خَلفَ البَابِ تَنتَظِرُ قُدُومَ وَالِدِها أو إخوانِها الكِبار ، طَمَعاً بِهدِيَةٍ أو قِطعَةِ حَلوى ، أو قُبلة ..

و هَا أنَا اليَومَ أنتَظِرُ ، ضَحكتُ وَقتَها في أعماقِ قَلبي ، لأنَّ الإنتِظَارَ هُنا يَختَلِفُ عن كُلِ اِنتِظارٍ أنتَظِرُهُ.

لا يُهم ما دامَ الحُبُ يُطهى على نَارٍ هَادِئَة ..

عَادَ ، و عُدتُ أنا مِن شرودي ، أعطَاني الطَعَامَ و تَقَابلنَا نقرأُ معاً بِداياتِ لِقاءٍ حَاكَهُ لَنا القَدرُ.

نستَرِقُ النظراتِ الخَجولَةِ ، شَعرتُ بِبَساطَتِهِ ، لَقد ربَّاهُ الخَالِقُ على حُسنِ الكَلامِ و الاستِمَاعِ ..

و لَكَأنَ التي تُجَالِسُهُ أُختُهُ .. قال :

ها أُختي ، هل أعجَبَكِ الطَعامُ ؟

و والله لم يَرفَع رَأسَهُ ، و لم يُميّع نَظَرَهُ ..

صَمتتِ الكلِماتُ وزادَ ضَجيجُ الطَلَبَةِ ، قُلتُ :

جَزاكَ اللهُ خَيراً ، لقَد فَعلتَ مَعي أشَياءَ كَثيرَةٍ ، لَعلَّني غَداً أرُدُّ لَكَ إيَّاها ، كادَ أن يختنِقَ و هُو يبتَلِعُ لُقمَتَهُ ، قُمتُ مِن مَكَاني بِسُرعَةٍ ، أضرِبُ على ظهرهِ ، وبعدَ أن هَدأت غَصَتُهُ قالَ: جَزاكِ اللهُ ألفَ خَيرٍ .. كِدتُ أموتُ .. و لو مِتُ لَكُنتِ أنتِ السَبب ..

وقفتُ في مكَاني مشدوهَةً ، و ارتَدَت مَلامِحي وِشَاحَ الفَزَع !! ، قُلتُ مُتعجِبَةً :

أنَا ! لِماذا ؟ ماذا فَعلت؟

ضَحِك كَثِيراً ، حَتى اِحمَرَّ وَجهُهُ الأزهَرُ ، و لَكِنَّهُ قَد لاحَظَ تَقلُباتي المِزَاجيَةِ و لونَ وَجهي الذي بَدَت عَليهِ مسَحةٌ مِنَ الغَضَبِ ، وبعدَ أن هدأَ قال:

أعتَذر لَمْ أقصِد إغضابَكِ ، لكنني لم أفعل شَيئاً حَتى تَردُي لي المَعروف ، و مَا هو المَعروفُ الذي فَعلتُهُ أنا ، ما فعلتُهُ كانَ لِوَجهِ اللهِ خالِصا ، و لا أُرِيدُ مِنكِ جَزاءً و لا شُكُوراً ..

شَهَامة ..

كِدتُ أن أكتُبَ لِرِجَالِ أُمَتِنا المُرَابِطَةِ في سَبِيلِ المُواقِعِ التي استَعملناها لِمُحَارَبةِ أفكَارِنا و شَهامَتِنا ، تَباً لَكُم بِما صنعتُم على مَذَبحِ الوَاقِعِ ..

مِن هُنا بَدأ الوَجعُ ..

كُنتُ أظنُ بِأنَّ الحُبَ بَلسمٌ لِلحَياةِ ..و بِتُ على قنَاعَةٍ تَامَةٍ بِأنَّ الحُبَ هو مِلحٌ يُضَافُ فَوقَ جِراحِ القَلبِ ، و ما إن لامَسَ القَلبُ أشغَالَهُ الجُنونيَةَ حَتى يَبدأَ العدَّ التَنَازُلي لِلألَم..

جَلدَةٌ تِلو الجَلدَةِ ..

كُلُ شَيءٍ يَجلِدُكِ بِالإنتِظارِ و التَرَقُبِ و التَجَسُسِ على كُلِ شَيءٍ ، لَمْ تَعُد مِهنَتُكِ حَبيبةٌ بَعدَ اليَومِ ، الآن أنتِ تَعمَلين كَمُتَحرِيَةٍ في المَكتَبِ الفِيدرالي للحُبِ ، سَوفَ تَبحَثينَ عن كُلِ وسَائِلِ التَنقِيبِ و التَفتيشِ لِتكتَشِفي تَفاصيلَ هَذَا الرَجُلِ..

جُنُونٌ و لَكِن مِن عَالَمٍ آخَر ..

رَائِحَةُ عِطرِهِ تُهمُكِ ، مَذَاقُ لِسَانِهِ يَستهويكِ ، لَونُهُ المفَضَّلُ يَستَعبِدُكِ ، بُرجُهُ و ابتِسامَتُهُ و هِندامُهُ و تبغُهُ إن كَانَ مِن حِزبِ المُدَخّنين و حَركَةُ يَدِهِ و سَاعَةُ يَدِهِ و مَا يَجولُ في خَاطِرِهِ و أسَرارَهُ الثُنَائيَةُ و أسَرارُهُ العلَنيَةُ و مَواعيدُ ذَهَابِهِ و إيابِهِ و خَطواتُهُ النرجِسيَةُ و حُبُهُ لِعَائِلَتِهِ و غَيرَتُهُ على

أُمِهِ و أرصِدَتُهُ البنكيَةُ و الوَرَقيَةُ و مِعطَفُهُ و لِحيَتُهُ و شَعرُ جَسدِهِ الظاهِرِ على عُنُقِهِ و رَائِحَةِ عَرقِهِ و عَدَمِ إكتِراثِهِ لأشياءٍ مُهِمَةٍ بِالنِسبَةِ لكِ و تَسريحَةُ شَعرِهِ و تَقليمُ أظَافِرِهِ و وَشمُهُ المَخفي خَلفَ الثيابِ و أسماءٌ خَاضَ مَعَها تَجرِبَةَ الحُبِ سَابِقاً و عُروقُ يديهِ و عَرَقِهِ المُتَصبِبِ خَجلاً و حُبُهُ لِلامَوجود و بُغضُهُ لِلمَوجودِ و مِهنَتُهُ الثُلاثيَةُ و هِوايَتُهُ الأولى و صُور أحرقَها لأنها آلمتهُ ..

و أنَا !؟

أينَ أنَا وَسطَ هَذِهِ الفَوضى العَارِمَةِ بِالذِكرَياتِ؟

أو الواقِعِ الذي يَجبُ أن تَكتَشِفيهِ ، والماضي المَشبوهِ بِمَكرِهِ و بَراءتِهِ و شَجاعَتِهِ و جُبنِهِ ، عليكِ أن تَستَعِدي و تَرفَعي كَافَة أنواعِ الجاهِزيَةِ فَإنَّ الرِجَالَ لا تُؤخَذُ مِنهُم الأسرارُ عِنوةً ، لأنَّ الله صَبَ فَوق أسرارِهم رَصَاصَ السِرِ ، و أنتِ شِيفَرتهُ و مِفتاحهُ السِرِّي ، في حَالَةِ ضَعفٍ .. في سَاعَةِ عِنَاقٍ .. في سُقوطٍ مُرغَمٍ لِلنَشوَةِ .. في ذَوبانٍ مُباغِتٍ لِلشَهوَةِ ..

عَليكِ أن تَسِنّي سِكينَكِ ، وتَفرِشي فِخاخَكِ ، و تُشهِري سيوفَكِ ، و تَرفَعي رِماحَكِ ، و تَنقّضي عَلَيهِ ، أنتِ الآنَ رَاحَتُهُ و سَريرُهُ و أريكَتهُ و وِسَادَتُهُ ، في لَحظَةِ وِدَادٍ امتصّي مِنهُ سِرَّهُ و سُمَّهُ و عَسلَهُ و مُرَّهُ ، أُسكُبِي في شَهِيَتِهِ خَمرةَ أسئِلَتِكِ ، و طَارِدِيهِ بِأشَياءٍ لَمْ يتلفّظ بِها سابِقاً بِلُطفٍ يا أُنثانا المَاكِرة ..

أرِيحِيهِ بَعد ذَبحِ سِرهِ ، و إرَاقَةَ تَكتُمِهِ ، هُوَ الآن يَسِيلُ و يَسيلُ و يَسيل ، و امتَصِي جَمِيعَ ثَروتِهِ الدَاخِلِيَةِ ، و لا تَقومِي من مَخدَرِهِ حَتى تَتأكَدي من تَجفِيفِ أسَرارِهِ ..

لا تَدعي بَقايا آثَارٍ لِجَرِيمَتِكِ ..

هُم الرِجَالُ وَحدَهُم من يُمَارِسونَ المَكرَ نَهَاراً و على عَينك يا تَاجِر ، و من يَمنَعهُم و هُم الرِجَالُ الذِين لا يُردُ قَولُهُم و لا يُلامُ فِعلُهُم ، و نَحنُ مَعاشِر النِساءِ لنا حَظٌ وَفِيرٌ لِلمَكرِ أيضاً ، إِنَّهُ مساؤنا المُخَطَطُ لهُ و المُدَبَرُ لأمرِهِ و المُحَاكُ لما يَصنعهُ الرِجَالُ في نَهَارِهِم ..

يأتينا مُتعَبٌ ، قَد أهلَكَتهُ مَشاغِلُ الحياةِ لِاصطيادِ رِزقَنا ، نُجَرِدُهُ مِن كَافَةِ تَعَبِهِ ..

استحمَامٌ ..

فَطَعَامٌ ..

فَسَهرٌ ..

فَسمرٌ ..

فَخمرةٌ ..

فَسكَرةٌ ..

فخُلوةٌ ..

فانقِضاضٌ على الأسرارِ ، نَستلُ مِنهُ الكَلِمَةَ تِلو الكَلِمَةِ ، و نُلقي بِهِ ضَحيةَ انكِشَافِهِ على سَرِيرِ النَشوَةِ حتى يَأتيهِ الفَجرُ و لكأنَهُ لم يَقُل شيئًا ..

هُم الرِجَالُ ، لَهُم نَهَارُهُم المَشبوهُ ، و لنا ليلُنا المَحمومُ بِالشَهوَةِ ..

ولَكن هذا الشاب لَهُ مِزَاجُهُ الخاص ، و تَربيَتُهُ الأنيقة ، فَليسَ مِنَ السَهلِ أن تَسحَبي شاباً جَعلَ الإيمان نُصبَ عَينيهِ

، هَذا النَوعُ مِنَ الرِجَالِ مُحصَنٌ بِكَلامِ اللهِ ، فَمِنَ الصَعبِ تَسرِيب سِحركِ إلى قَلبِهِ ، و الحِرصُ هُنا وَاجِبٌ ..

عَليكِ أن تَتَصنعي بِمَا شِئتِ من أغَطيَةٍ تَشي بِطُهرِكِ و عِفَتكِ و تَقواكِ ، و أن تَجعَلي الخِمَارَ غِطَاءكِ و الجِلبَابَ ملبَسكِ ، و أمَا الكِلمَاتُ فَعليكِ أن تَسمَعي المُحَاضَرات الكَثيرة و الحِكَمَ الوَفيرَةَ و المَواعِظَ المُؤثِّرَةَ ..

بَخِّري البَيتَ بِالمِسكِ و العنبَرِ ، أيقِظيهِ في الثُلثِ الأخيرِ مِنَ الليلِ ، جهِّزي ثَوبَهُ الأبيضَ ، ادفَعيهِ إلى المَسَاجِدِ ، حُثيهِ على الصَدَقَةِ ، و صَونِ الجَارِ ، و رِضَى الوَالِدينِ ، و إغاثَةِ اللهَفاتِ ، و قَضَاءِ الدَّينِ ..

لا تَنسَي صَومَ يَومِ الإثنَينِ و الخَميس و الثَلاثُ البيضُ مِن كُلِّ شَهرٍ و شوّال و شعبان و مُحرَّم و عَرفَة و ذَبح الأضاحي ..

هَذهِ الحُلولُ الوَحيدَةُ لإيقَاعِهِ في فَخِ الثِقَةِ ..

سَيثِقُ بِكِ ، سَيضعُفُ أمَامَ تَقواكِ ، سَيجعَلُكِ مَضَرباً لِلمَثَلِ ، سَيتَفاخَرُ بِكِ أمَامَ أهلِهِ و صَحبِهِ و زَبائِنه و مُحبِيه ..

هُنَا و أمَامَ المَشَاهِد الصَاخِبَة بِالإيمَان ..

اجلدِيهِ بِمَا شِئتِ من أسئلة و استفساراتٍ و أسرارٍ و أشياءٍ منَ المَاضِي و الحَاضِر ، فأنتِ في عَينه الآن الزَوجَة المَصون و مُستَودع أسرارِهِ و مَكَامن دِثارِهِ و صُندوقهُ الأسود بَعد مَماتهُ ..

اسحبِي مَا شِأتِ من أرصِدته فَأنتِ في قَلبه بَعد هَذهِ الطَاقة الهائِلة و الهَالة النُورانِية بِالتُقَى كُلهُ و لُبهُ و نَسبهُ و حسَبهُ..

مَعَكِ سَنة وَاحِدة منَ التَمثِيلِ و التَبذِيرِ في التَصنُع و سَيكونُ لَكِ عَبداً ، و مَلهَمتهُ الجَمِيلة و مَلكَتهُ الجَلِيلة ، رِجَالٌ مَخدوعِينَ بِالعَواطِفِ و ببَهَارِجِ الإيمَانِ المُبَستَر و التَقوى المُعَلبة ، فَلم يَعُد هناك مَا تَستصعِبِينهُ يا حِلوة ، فَالمواقعِ التي تَبثُ كِذبةِ التُقى قَد أخذَت من عَالمِ الصَفحَاتِ الإلكترونِية حَيزاً كَبِيراً و فِتَناً وَفِيرة ..

أرِيحِي قَلبَكِ من العَودة إلى الأُمهَاتِ و العَمَّاتِ و أخذِ الإستِشَارة من الصُويحِباتِ و الجَاراتِ ، فَبَينَ يَدَيكِ كَنزٌ

ثَمين منَ الحُبِ و البُغضِ و التَمثِيلِ و التَصنُعِ و التَبهرُجِ و النِفاقِ و ارتِدَاءِ الأقنِعة و الأثوابِ مَا يُريحُ قَلبكِ و يُؤنِبُ ضَميركِ إن بَقِي لَديكِ ضَمير ألا و هُوَ :

عَالم الإنتَرنت و المَواقِع النِسَائِية ..

و من نُقطَةِ التَقوى بَدأ وَجَعي ..

فِيهِ مِنَ التُقَى المَصونِ مَا يَطَمعُ بِهِ أهل الله ..

لم يَعُد الآباء يُصَدِقونَ أخَلاق الرِجَالِ و تُقاهُم ، فَلقد سَمعتُ وَالدِي يَقول في سَاعَةِ غَضَب :

مَعَاكَ لَيرة فَأنتَ تُسَاوِي لَيرة ، و مَعَاكَ ألف ، فَأنتَ تُسَاوي ألف.

في سَاعَةِ غَيض تَفوحُ رَائِحَة الرِجَال ، و حَتى النِسَاءُ كَذلك ، و لَكن الذُكُور هُم أشدُّ نَتناً ، لأنَ عِصمتنَا نَحنُ مَعَاشِر النِسَاء في قَبضَةِ الرِجَالِ و أحَكَامهم و عَادَاتهم و تَقَالِيدِهم و حَتى دِينهم ..

و كُلٌ على حَسَبِ قِنَاعِهِ و مَكرِهِ ..

يَتَلونُ مَتَى شَاء ، لَهُ عُفونَةُ التَنكُر ، نَتانَةُ التَلون ، و أضعَفُ مَا يَكونُ أمَامَ الدَراهِم ، فَهوَ مُستَعِدٌ أن يُسلِمَ أوطَاناً مُتَلتَلة بِالعَبِيدِ لِجلادِها مُقَابِلَ بَرِيقِ دِينَارٍ أو مَنصِبٍ مَلكِي أو رِئاسي أو حَتى عَامِلَ نَظَافَةٍ في بُنوكِ أعدَائِهِ ..

نُقطَةُ الضَعفِ سَبَبُ هلاكِنَا ..

و لِأَنَنَا أدواتٌ شُلَت في أحشَائِنَا عَجلاتِ الأمَل ، فَنحنُ مُرغَمونَ على الأمرِ و الطَاعَة من بَابِ :

الحِكمة و الدِين و العَادة و البَيعَة ..

كُل مَا قُلْتهُ لَكُم مُجَردُ كِذبَةٍ نَحنُ صَنعنَاها مُقَابِلَ الأمَان ..

أيٌّ أمَان هَذَا الذِي نَتغنى بِهِ !؟

هُوَ وَحدَهُ الأمَانُ الحَلقَةُ المَفقودةُ في وطنِنا العَرَبي ..

و رَدَةُ الفِعلِ السَلبيَةِ التي نُجبِرُ أنفُسنا على تَصدِيقِها مِن أجلِ أن نُحكِمَ قُيودَ العُبوديَةِ حَولَ أعنَاقِنَا ، لم نَعُد نَملِكُ شَيئاً أبداً ! ..

آخرُ سِينَاريو إقتِصَادِي تَعثَّرنَا بِهِ هو البترول العَرِبي ..

ذَاكَ الذَهبُ الأسودُ ، الذِي لم نَرَ بَرِيقَهُ سِوى في دِعَاياتِ: اميراد هَيس ، و انادارکو للبَترول ، و اباتشِي ، و ابستو اينرجى ، و الأطلَسِي للبَترول ..

و طَبعاً كُل هَذِهِ الشَرِكَات أمِريكِية و لَكن مَا يُبَاعُ بها هُوَ النِفط العَرِبي ، اللعَنَةُ التي أعمَت وُلاةَ الأُمورِ مِن سَاسَةٍ و قَادَةٍ و قُواد ، يَقودونَ الشُعُوب إلى الهَلاكِ ..

و مَع أنَ قَلمِي لَيسَ ضِدَ الفَنِ ، لأنَني فَنانَةٌ و رَسَامَةٌ مُنذُ الطُفولَةِ ، فإنَني ضِدَ الإباحيَةِ و التَعتيم الإعلامي ضِدَ القَضيَةِ الأساسيَةِ ألا و هيَ قَضيَةُ الحُريَةِ ..

نَحنُ العَبيدُ أولادُ العَبيدِ يا عرب ..

نَحنُ من نَصنَع سَفَّاحينا ، و حَتى في قَانُونِ أدَيانِنا ، عَليكَ بِالصَمتِ و إطَاعَةِ وِلاةِ الأمورِ ، لأنَّ الخُروجَ عَن صَمتِكَ هُوَ أكبَرُ جَريمَةٍ ، و مِنَ المُؤكَد أنَّكَ سَوفَ تُصنَّفُ بِالرِدَةِ و الكُفرِ و الفسقِ و المَعصيَةِ و أضعفُ الإستِعبادِ هُوَ الإعتِقَالُ لِإخراسِ صَوتِ الحَقّ ..

ألفُ تَحيَةٍ لِلمُفكَرِ الإسَلامي السَعودي الذي يَدعو إلى العَقلِ و مَنطِقِ الحَضارَةِ و الرُقي أستَاذِي :

سلمَان العودة ..

الذِي فَهِمَ اللهُ بِلغُةِ الحُبِ ، و مَا كَانَ من حُبِهِ للهِ و للخَلقِ عَامة من غَيرِ أي تمييز إلا أن يُسجَنَ و يُزَجَ في أقبيَةِ النِظَامِ السَعودي المُتهالك ..

هُمُ المُلوكُ .. و نَحنُ العَبيد ..

و مَن قَالَ لَكُم بِأنَّ المُلوكَ لَيسوا بِعبيدٍ ؟! ..

حَقَائِقُ أكتُبُها لِلعَبيدِ فَقط ، الذِينَ قَدَّموا صَمتَهُم لِلعُبوديَةِ مِن أجلِ عُبوديَةٍ سَموها بَغَيرِ اسمِها ، و أعلمُ أنَّ بَعدَ هَذِهِ الحَقَائِقِ سَوفَ تُسحَبُ الأقلامُ ضِدَّ حُرِيَةِ من أرَادوا لأنفُسِهم أماناً و نوماً عَميقاً ..

سَوفَ يَصِلُ نُباحُ من يُدَافِعُ عَنهُم عَبرَ المَحطَاتِ الإخباريَةِ ، مَثَلاً كَالفضائيَةِ الأمريكيَةِ .. عَفواً ..

الفَضائِية العربيَةِ الإخباريَةِ ..

هَل تَعلمونَ يَا من تَتَنعمونَ بِبحبوحَةِ العُبوديَةِ بِأنَّ :

جَلادُكُم و مُلوكُكُم هُم و نِفطُهم من سَاعَدَ الوِلاياتِ المُتَحدَةَ الأمريكيَةَ في أن تُصبِحَ القوةَ العَالميَةَ الرَائِدَةَ في العَالَمِ ! ، كما أنَّها سَاعَدَت دُولاً أُخرى كالصين في أن تُقَدِّم لِمواطِنيها فُرصاً اقتِصَاديَةً غَيرَ مَسبوقَةٍ ، و رَفعِ مستَوياتِ المَعِيشَةِ في إفريقيا و آسيا و أمريكا اللاتينية !! ..

كم نحنُ محظوظونَ بِمُلوكِنا !! ..

محظوظونَ بِعُلماءِ اللِحى و أصحابِ مُؤلفاتِ أحكَامِ الحَيضِ و النِفاسِ و المَسحِ على الخُفَّين ، و لا أستَثني القَساوِسَةَ و البَطارِكة و غَيرَهم مِنْ عَبيدِ السُلطَانِ ..

و كَلامُ وَزيرِ النِفطِ السَعودِي السَابِق أحمَد زَكِي اليَمَانِي إلى الآن لم أجِد ما يُشبِهُهُ في صِدقِهِ حَيثُ قالَ يَوماً :

منَ الغَباءِ أن لا نَستَفِيد منَ الدَجاجَة التِي تَبيضُ ذَهَباً ، و التِي هِيَ دَجَاجَتُنا ، و لَكِن لَيسَ على العالَمِ كُلِّه أن يَشتَرِكَ في الوَليمَةِ ..

خَرجَ الرَجُلُ من عَباءةِ خَوفِهِ ، و نَطَقَ حَقِيقَةً و هُوَ في أكنَافِ العُبوديَةِ ، و في قَصرِ آلِهَةِ البِترولِ العَرِبي ، و لَكنَ السُؤال الذي غالِباً ما نعرِفُ إجابَتَه و لكن لا نَستَطِيع أن نَطرَحَهُ على بِلاطِ سَفاحِي البِلادِ ، ألا و هُوَ ، إلى أين يَذهَبُ البِترولُ العربي؟

و لَيذهَب البِترولُ و من يُتَاجِرونَ بِهِ إلى الجَحيم نَحنُ لسنا سِوى كومبارس في لُعبَتِهم ، نُذبح و نُقتَلُ و نَجوعُ و نَنتَشِرُ في أرضِ الشَتَات و لِماذا؟

عَليكَ أن تَسَأل شَرِكَة أرامكو الأمريكية ..

و عِندما سَألنا الشَرِكَة عَن ذَهبِنَا الأسودِ جاءتِ الإجابَةُ التي نعرِفُها، و لكن أحكَامَ إطَاعَةِ ولاةِ الأمرِ في القَوانينِ السَماويَةِ ألجَمتنا ، و أخرَسَتْ إيمانَنا ، عِدَةُ كَلِمَاتٍ صَرَّحت بِها الشَركة

اذهبوا و اسألوا آل سُعود مِن أبناءِ اِللصِّ الأكبَرِ عَبد العَزيز آل سُعود أولادٌ و أحفادٌ مِن مُلوكٍ و أُمراءٍ ..

وحدَها العَائِداتُ النِفطيَةُ التي تَصُبُ في جُيوبِهم هي وحدَها من سَتفضَحُ أرصِدَتَهم ، حَيثُ تُسوَّى و تُقسَّمُ العَائِداتُ النِفطيَةُ بينَ أفرادِ العَائِلة المَالِكَة

حَسنًا !؟ .. و الشَعب !؟

الشَعب !؟ .. فَليذهب الشَعب إلى الجَحِيم حَيثُ يَجري تَبديدُ هَذِهِ الثَرواتِ الطَائِلَةِ على تَرفِ و مَلذَّاتِ أُمراءِ آلِ سُعود ، و مِن هُنا مِن مَنفاي العُثماني أكتُبُ في هَذِهِ اللَيلَةِ التي يَموتُ فيها آلآفُ العَربِ جُوعاً هُنَا و هُناك أكتُبُ كَيفَ تُنَفَقُ المِلياراتُ على بِنَاءِ القُصورِ و شِراءِ المُنتَجعاتِ في

أوروبا و في أميركا لِصَالحِ الأُمراءِ المُتخَمينَ مِن آلِ سُعود ، كمَا يَتِمُ إهدارُ مَبالِغَ طَائِلَةٍ و مُضاعَفَةٍ على مُجونِ و فِسقِ الأُمراءِ و على مَوائِدِ القِمَارِ ، و إن لم تُصَدِق فاسأل لاس فِيغاس ..

بينما تُعاني الغالِبِيَةُ العُظمَى مِن أبناءِ الشَعبِ مِنَ الفَقرِ و الجُوعِ و الأُمِّيَةِ ..

و التَفقيرِ إلى أبسَطِ مُقومَاتِ الحَياةِ ..

و هَكذا سَارت بِيَ الدُنيا ..

أنا أمشي خُطوةٌ و الحُبُ يَدفَعُني ألفَ خُطوَةٍ ..

كَانَ بِي مِنَ الجُنونِ ما يَجعلُني أرتَطِمُ مَعَ القَلبِ

و لَكنّ القَلبَ لا يَهوى المُصادَفَةِ ، و أنا أيضاً لا أعرِفُ المُصَادَفاتِ أبداً ، و لَقَد عَرفتُ بِهِ شَهَامةَ شَابٍ أبى أن يَتَخطى أيةَ حُدودٍ عُرفيَةٍ أو أخلاقيَةٍ ، كَانَ يَمنَحُني مِن صَباحِهِ حَيويَةً لا أعرِفُ كيفَ أصِفُها ، و كُنتُ أُسَابِقُ الصَباحاتِ و الحَافِلاتِ و الطُرقاتِ أُهرولُ بِكُلِ مَا أُتى الشَوقُ مِن قُوَةٍ ، أنا التي لَمْ أفقه لُغَةَ اللَّهفَةِ يوماً ، مَا إنَ لمحتُ رُجولَتَهُ الفَتيَةَ حَتى خَمدَت أشواقي ، في كُلِ صَباحٍ أقِفُ أمَام المِرآةِ أُرَتِبُ حِجَابِي و أطوي خَرائِطَهُ لأنَّهُ شَابٌ يُحبُ الحِشمَةَ ، و لِحشمَتِي أحبَ أن يَجلسَ مِعِي ..

لم تُولَد التقوى معي ، و لكني وَرِثتُها و فُطِمتُ على عَاداتِها و تَقاليدِها ، كَانت أُمي قَد لاحَظت لهفتي في الإسراعِ بالذهابِ إلى الجامِعَةِ حَتى في النَزلاتِ البَرديَةِ و الرَعشَاتِ النَفسيَةِ فَكان لا يَمنَعُني مانِعٌ ، و كَانت أُمي

المِسكينَةُ تُحَاوِلُ جَاهِدَةً منعي من الذهابِ و أنا بهذهِ الحالةِ ، و لكَن لو أنَ السرَ لهُ لِسَان لنَطَقَ قَائِلاً :

إن عِلَّتي و دَوائي معقودَةٌ بِصفاءِ وَجهٍ أحبَبتُهُ و هَوتهُ نَفسي ، و لكن هَل هُوَ يَعرِفُ مَا يَدورُ خَلفَ جِدَارِ القَلبِ يا تُرى !؟ ..

فَأنا لم أعُد أعرِفُ شَيئاً ، إلا شَيئاً واحداً ، أراهُ في كُلِ شيءٍ ، في الطُرُقاتِ و الحَافِلاتِ و أروقَةِ الجَامِعة و على سَرِيري و في غُرفَتِي و بينَ أوراقِ كُتبِي و على مِنضدَتي و أنَا في غُرفَةِ الجُلوسِ و أمَامَ التَلفازِ و خَلفَ الكَنبِ ..

مُنحلٌ بِهِ حَتى الشَغف ..

مُتوحِدٌ بِخَيالهِ حَتى الهَوى ..

لَعلَّني مُجرِمَةٌ في الإِختيارِ ..

و لَكنَنِي صَائِبةٌ في اجتيازِ الطَريقِ ، كُلَّ يَومٍ بِذاتِ الحِجَابِ و الجِلبابِ ، و ذاتِ الحَقيبَةِ ، أخَبئُ وَجهِي أمَامَ المَارَةِ و المُتَلصِصينَ على الفَتَياتِ ، و لا أُريدُ أن يَراني أحدٌ غَيرَهُ ..

عِندما يَراني قَادِمَةً إلِيهِ من بَعيد يَبتَسِمُ وكأن الدُنيا أشرَقَت و كَشَفَت خِمارَها نوراً سَاطِعَةً لِلناظرينَ ..

و لَكن أنا أُخفي لَهفَتي كَما أُخفي خَطاياي ..

لَقد سَمِعتُ أُمي تَقولُ : الرِجَالُ لَيسَ لَهُم أمَان ..

ضَحِكتُ حينها ، حَتى سَقطَ قَلبي ، و لَكِن لَمْ تَقُلها أمَامَ أبي لأنَ الدِمشقيَةَ المُنضَبِطَةَ لا تَرفَعُ صَوتَها أمَامَ زَوجِها حتى لو قَطَعَ عُنُقَها ، و طَبعاً هَذِهِ العَادَةُ وَرِثتها مِن وَالدَتِها أُم أمجَد الجُوخَدَار ..

و ما أدراكَ مَن أُمّ أمجَد ..

فَلِجَدَّتي حِكَايَةٌ طَويلَةٌ لا مُتَسَعَ للحَدِيث عنهَا الآن، و لَكن العُبوديَةَ الأُنثَويَةَ هي نَوعٌ مِنَ النُعومَةِ ، و خُصوصاً عِندما تَنطَلِقُ الدَعواتُ ، و لكن الدعوَة على من يا تُرى ؟؟

على أنفُسِهنَّ يا قَوم ..

و هَذهِ الكَلمَاتِ تُعدُ نُعومَةٌ و دَلَعٌ و مَياعَةٌ ..

مَثلاً :

تَطلع على قَبري ..

و تَكفن عَضامي ..

و تُشكُل آسِي ..

و مَا أكثَرُها مِن دَعواتٍ ، و تَوسُلاتٍ ، و غَباءٍ مَا بَعدَهُ غباء ، و حَماقاتٍ و سَخافاتٍ عمياء ، كَيف تَرجو مِن أُنثى لم ترَ مِنَ الرِجَالِ سِوى أبوهَا و أخوهَا و خِتَامُهَا زَوجُهَا..

هُوَ الآمِرُ الناهي ، الذي لا يُقَالُ لَهُ : لا ..

و لُغَةُ : اللا .. على كَوكَبِ الأُنثَى الدِمشقيَةِ مرفُوضٌ بَتاتاً ، و مُمكِنٌ أن تُرمَى في بَيتِ أهَلِها أربَعينَ خَريفاً ، و لا أحَدَ يَتعَثَرُ بِها ، سِوى مَن تَجَاوزَ من العُمرِ عِتياً ، فَالطَلاقُ هُنا يُعَدُ فَضَيحَةً ، و كم من النِسَاء كان قد طَواهُنَّ المَوتُ قَهراً ، و لا أحدَ يَعرِفُ ما جَرى مَعها سِوى جُدرانُ القُبورِ ..

فَمِنَ المُؤكَدِ أنَّ النِساءَ هُنا يَمُتَنَ قَهراً و غَيظاً ..

و عَليكَ بِالإِحصائياتِ التي أغلَبُ نتائِجها مِنَ الجِنسِ النَاعِم ، حَيثُ تَقول :

بِأنَّ نِسبَةَ المَوتِ بِالسَكَتاتِ القَلبيَةِ عِندَ النِساء يَفوقُ الضِّعفَينِ لدى الرِجَالِ في هَذِهِ العَاصِمَةِ فَقط ..

سَكتَةٌ قَلبيَةٌ أو جَلطَةٌ دِماغِيَةٌ أو سَرطَانٌ في الدَّمِ لا يَهُم ، المُهِم أن أموتَ في سَبيلِهِ حُبّاً ، أُرِيدُ أن أنعُمَ بِحُبٍ مَكوي بِالمَتاعِبِ ..

و لكَن لِما الحُبُ يُتعِبُ القُلوبَ !؟

و طَالما أنَنا نَعرِفُ أنَّ الحُبَّ مُتعِبٌ إلى هَذا الحَدِّ مِنَ الأَلَمِ لِما نُريدُ أن نَخُوضَ غِمَارَهُ ، و تَصطكَّ سيوفُ هَوانِها مع سيوفِ هَواهُ !؟ ..

لأنَنا نملِكُ صِفَةَ النَقصِ ، و لا يُكمِلُها سِوى قَسوةُ الحُبِ و عَذَابُهُ ، و نَحنُ بِطَبيعتِنا البَشَريَةِ نَعشَقُ المُجَازَفَةَ بِكُلِّ شَيءٍ ، فَكيفَ لو كَانت المُغَامَرَةُ قِصَةً عِشقيةً !؟

أُحِبُّهُ .

نَعَم هَكَذا و مِن غَيرِ أيّةِ مُقدِمَاتٍ ..

و لَكن كُل السُبُلِ تَمنَعُني أن أبوحَ بها ..

لَيسَ خَوفاً منَ الحُبِ ! لا و الذِي خَلقَ الحُب ، و لَكن خَوفاً على كَرامَتي أولاً ، و حَياءً على سُمعةِ أهلي إن انتَشَرَ خَبَرُ حُبي لِلفَتى ..

هَذا مَا يُتعِبُنِي دَائِمًا ، و بِتُ أطرحُ على ذَاتِي كَماً وَفِيراً مِنَ التَساؤلاتِ ، و لَكنّ الجَوابَ الواقِعي يَسبَحُ ضِدَّ التَيارِ..

لَماذا نَحنُ في عَلاقَاتِنا العاطِفيَةِ نُخفي الحُبَّ و لو لَفظاً كما نُخفي عَوراتِنا !؟

وهل الحُبُ عَورة !؟ ..

إنَ أهلَ التُقَى عِندمَا يُحِبونَ خَالِقَهُم يَمتَثِلونَ لأمرِهِ ، و ما أن قَطَعوا شَوطاً مَعَ حُبِهِم لِذاتِهِ العَلِيَةِ حتى يُطلِقونَ لِحَاهُم و يَرتَدونَ البياضَ و النِساءُ يَتَخمّرنَ بِالسَوادِ و مِنهُم مَن يَضَعُ الصَليبَ عِشقاً و مِنهُم مَن تُحَفُّ جَبهَتُهُ سُجوداً و مِنهُ مَن قَضَى نَحبَهُ و مِنهُم مَن يَنتَظِرُ و ما بَدَّلوا تَبديلاً.

و تَجِدُهُم يُظهِرونَ حُبَّهُم لَهُ حَتى تَذوبَ مَعَالِمُهُم ..

و لَكَ في رَابِعَة العَدَويةِ أُسوَةٌ حَسَنَةٌ ..

الحُبُ لَفظاً مَمنوعاً ، و لَكن التَظاهُرَ بِهِ مَسموحٌ ، و تَساؤلاتٌ أُخرى تَقول :

كَيفَ أحبَّ أبي تِلكَ المَرأَةَ التي تُدعَى أُمي !؟

العَادَة ..

نَعم إنَّها العادة ..

التي رَاحَ ضَحيَتُها مَلايينُ النِساءِ في المُجتَمعاتِ العَربيَةِ ، قَبلَ الصَحوَةِ الثَقافيَةِ التي بَدَأت تَتَسلَلُ في السِتينياتِ إلى زمانِنا هَذا كَانَتِ المَرأَةُ عِبارَةً عَن أَحَدِ أدواتِ المَنزِلِ ، أو بِعِبارَةٍ أكثَر دِقَةً أحدَ العَبيدِ ، و لأنَ المَرأة العَرَبيَةَ ولِدَت مِن رَحِمِ الصَحَراءِ ، فَكَانَ الحِملُ الأكبَرُ مُلقى على عاتِقِها..

لَمْ تَحمل كِتاباً ، و لم تَختَلِط بِالرِجَالِ ، و كُلُ مُقومَاتِ الإنفِتاحِ كَانت مَسدودَةً أمامَها ، و يا لِسوءِ حَظّها ، لَمْ نَسمَع بِها سِوى حَبيبَةٍ يُتَغَزَلُ بِها و بِجَمالِها ..

آهٌ و ألفُ آه على جَمَالِهَا ..

فَقَد تَطَوّرَ الجَمَالُ في زَمانِنا هَذَا إلى حَدِ الخَديعَةِ ، و لنَ أَظلِمَ المَرأَةَ بِأَطنانِ السيليكون و المِكياج و البَارفان التي تُنفِقُها على نَفسِها ، لأنَّ الرِجَالَ فِيهم مِن تَرَفِ الخَديعَةِ و المَكرِ ما يقتُلُ ضَميرَ هَذَا الكونِ بِرِمَتِهِ.

و كُلٌ يُنفِقُ على حسابِ مِقياسِ كَذِبِهِ ، و لِكُلِ زَمَانٍ كِذبَتُه و مَكرُهُ و رِجَالُهُ و كَذَلِكَ نِسَاؤُهُ ، و هَيهات مِنا الذِلة ..

و لأنَنا أُمَمٌ تَخدعُها المَظَاهِرُ ، و الأقنِعَةُ ، و التَنكُرُ ، و التَّلونُ ، و الحَربَئةُ .. مَفهومُ الحَربَئةِ هو مَفهومٌ جَديدٌ يُطلَقُ على صَنفٍ مِنَ البَشَرِ هِوايَتُهُم التَلونُ كَالحِرباءِ ..

فِإنَّ الرَبَّ أرسَلَ إلى هَذهِ الأُمَةِ رُسُلاً و أنبياء فُقَراء و رُعَاةُ غَنَم و نَجَّارين و بَنَائين .. و لَكِنَّ المُجتَمَعَ رَفَضَهُم لأنَّهُم ليسوا مِن كِبارِ القَومِ ، فَما كَانَ مِنَ السُفهَاءِ إلا أن ضَرَبوهم و شَتَموهُم و قَاتَلوهُم و وصَفوهُم بِالجُنونِ و نُعوتٍ لا تُعَدُ و لا تُحصَى ..

انقَطعَ الوَحيُ الرَبَّاني بِموتِ النَبي مُحَمَّد ..

و انقَطع من بَعدهِ الخَيرُ ، و تَراكمتِ الأمراضُ ، لَقد ارسَلَ اللهُ الرُسُلَ مِن أجلِ تَوحِيدِ القُلوبِ على كَلِمَةِ الحُبِ و القُربِ إلَيهِ وَحدَهُ ، و أن لا يَظلَمَ النَاسُ بَعدَهُم في مَلكوتِ اللهِ و لا يَتنَاحرونَ و لا يَشتمونَ بَعضَهُم بَعضاً و لا

يَتَخِذونَ بَعدَهُم أرباباً مِن دونِهِ ، و أن يَتَقبلونَ بَعضَهُم بَعضَاً بِالمَوعِظَةِ و الكَلِمَةِ الحَسَنَةِ ..

فَأنزَلَ الكُتُبَ و المَراسيمَ و التَشريعَات إلى البَشَرِ كافَةً ، و هَذِهِ التَشَريعات و القوانينُ أتَت لِتسويَةِ القُلوبِ و جَمعِها على الحُبِّ ..

و لَكِن كُلٌ فَهِمَ الحُبَّ على مُبتغَاهُ و هَواهُ ، فَمِنهُم من فَهِمَها بِالكَلِمَةِ ، و مِنهُم من فَهِمها بِالصَدَقَةِ ، و مِنُهم من فَهِمها بِالزُهدِ و التَّقشُفِ ، و مِنهُم مَن فَهِمها بِالسَيفِ و هَذا الصَنفُ أشَدُّ عَداوةً لِلحُبِ ولِمَفهومِ الرُسُلِ.

و لم يَكتَفِ المُحلِلونَ الذِينَ يَطوونَ سَاعَاتِهم خَلفَ مَجَاهِرِ التَحليلِ و التَدقيقِ في ما يَقصِدُهُ اللهُ من أمورٍ هي أقرَبُ لِلقَلبِ من حَبلِ الوَريدِ ليَرسموا لِلمُجتَمَعِ خُطَطَ التَفرِقَةِ و التَعنيفِ و التَمييز و العُنصُريَةِ ..

أُمَمٌ فيها ألفُ شَرخٍ و شَرخٍ ، لَمْ تَكتَفِ بِنَصبِ العَدَاءِ بينَ المُتَعاطينَ دِينَ أهوائِهم عَاطِفياً ، بَلْ جَعلوا الذَبحَ قُرباناً ، و الدِماءَ أجراً ، و الدَمارَ فَتحاً.

أيا أُمَماً لَمْ تَعي مِن مُرادِ اللهِ سِوى لُغَة السَيفِ ، هَل هَكَذا تُرَدُ الإِبِلُ؟

و مَن يَسألُهُم ما دَامَت العُقولُ مُؤصَدَةٌ ، و حُدودُها مُقفَلَةٌ؟

تَخيّل بِأنَّ نِهايَةَ العِلمِ أن يَكونَ مَحضُ خُرافَةٍ ..

نَعم خُرافَةٍ .. و أقولُها بِملئِ قَلَمي خُرافَةٌ ..

لَيسَ مِنَ المَنطِقِ أن تَجعَلَ أيَّ دِينٍ سَماويٍ أو غَيرَ سَمَاويٍ هُو العِلمُ الذي لا يُضاهيهِ عِلمٌ ، بينما أربابُ العُقولِ يَعملونَ لَيلاً نَهاراً لاكتِشافِ و ابتِكارِ الطَاقاتِ الذَّريَةِ لِإكمالِ مَسيرَةِ العالَمِ و توفيرِ سُبُلِ الرَاحَةِ لِلبَشَريَةِ.

تَخيّل بِأنَّ هُناكَ في الصَوامِعِ و المَعابِدِ و غَيرِها مِنَ الطَوائِفِ في كُلِّ أنحَاءِ العالَمِ ، عُقولٌ أرهَقتها عَملياتُ الحَشوِ المُمَنهَجِ ، إنَّ هَذِهِ المَصَانِعَ الطَائفيَةَ ، و المَصَاحَ النفسيَةَ ، التِي تَعملُ ليلاً نهاراً على استِنزَافِ العَقلِ بِكُلِّ وَسائِلِ العُدوانيَةِ لَن تَصنَعَ قَشَّةً.

نَحنُ أُمَةٌ مَشغولَةٌ .. ولا نملِكُ الوقتَ لِلتَقَدُمِ بِأيَةِ حَضارَةٍ أو أيِّ ابتِكارٍ ، لَيسَ فَقط تَقدُماً ،حتّى أننا لا نملِكُ الوقتَ لِلحَديثِ عن أيَّةِ فِكرَةٍ تَنمَويَةٍ

نَحنُ أُمَةٌ مَشغولَةٌ بِماضيها فَقط ، التارِيخُ أرهَقَنا مِن زَمَنِ الزيرِ سَالم إلى زَمَنِ المَلكِ سَلمان آلِ سُعود.

عَداواتٌ و مُشاحَناتٌ و بَغضَاءٌ ، و شَتائِم ، و هَزائِم تِلو الهَزائِم و كُرهٌ في كُلِ مَكَانٍ .. هَل دَخَلتَ إلى مَكتباتِنا و شاهدتَ ما يَملأُها.. يا الله .. سَوفَ تَبكِي دَماً ..كُلُ شَيءٍ قَد انقَرَضَ فيها .. اختفى كُلُّ شَيءٍ و لن تَجِدَ فيها سِوى السَراب ، سَتَقِفُ على أعتابِ الرُفوفِ المُصطفِ عليها مَلايينُ الأوراقِ المليئَةِ بِالبُغضِ ، أينَ هُم أولَئِكَ العمالِقَةُ ؟. ابنُ الهَيثَمِ ، و ابنُ النَفيسِ ، و جَابِر بِن حَيَّان ، و يَعقوبُ بنُ إسحاق الكِندي ، و ابنُ رُشدٍ ، و الزُهري ، و الإدريسي ، و ثَابِت بِن قُرَّة ، و ابنُ أبي أصيبِعَة ، و حُنينُ بنُ إسحاق ، و ابنُ زُهرٍ ، و فَخَرُالدينِ الرَازي ، و عَبدُ

اللَطيفِ بن يُوسُفَ البَغدادي ، و أبو حيَّان ، و ابن هُبَل ، و ابنُ الذَهَبي.

أينَ هُم؟

و من حَلَّ مَكَانَهُم ، و لِما هَذا الضَبابُ؟

إن تَغيّبَ العَقلُ عَبرَ ألفِ سَنَةٍ ، بِطُرُقٍ عِدَّةٍ جَعلَت مِنَ المُواطِنِ العَربي أُضحُوكةً ، و إن أحَبَبتَ أن تَرى الفَراغَ الذي استَفحَلَ في عُقولِنا عَليكَ أن تَدخُلَ إلى مَواقعِ التَواصُلِ الاِجتِماعي العَربية ، و شَاهِد عَدوى الأدبِ التي لم نَرَ مِنها أيَّة صِلَةٍ بالأدَبِ ..

سَوفَ تَرى العَجبَ في مَواقِعِ العَجَبِ ، السَبُّ ، و الشَتمُ ، و القَذفُ ، و عَدَمُ تَقَبُّلِ الطَرَفِ الآخَرِ مَهما كانَت موازَنَــتُهُ العَقليَةُ ، و عَدمُ احتِرامِ أي رَأيٍ مَهما كَان ، أُمَةٌ لَمْ يَجمَعها سِوى صَوتُ المِغناجَةِ نانسي عَجرم و لم يُفَرِقها سِوى القَضيةُ السَعوديةُ القَطَريَةُ ، لقَد نَسيتُ أن أطرَحَ عَليكَ هَذا السُؤال ، هَل أنتَ ضدَّ قَضِيَةِ المُقاطَعَةِ أم مَعَها ، اقصِدُ المُقَاطَعة القَطَرية؟

فَمِنَ الصَعبِ أن تَعَيشَ بِهدوءٍ على هَذِهِ الخَارِطَةِ المُتشَابِكَةِ بِأفكارِها و مُعتَقداتِها ، لأنَّكَ جُزءٌ مِنَ القَطيعِ ، نَعم القَطيع! أنتَ .. و أنَا .. و هُم .. جميعُنا ..

و كُلُ شَيءٍ مَاضٍ و حَاضِرٍ و غَائِبٍ و نَاقِصٍ ، و كُلٌ على حَسَبِ فِعلِهِ ، و مَهما صَنَعتَ من مَجدٍ خَلفَ ظَهرِ هَذا القَطيعِ فَلَن تَشفَعَ لكَ مُنجزَاتُكَ مِن ألسِنَتِهم.

و اسألِ السُجونَ التِي ضمّتنا ذات يومٍ ، و إنَا لَصادِقون.

سَارَت بِنا الأيامُ تَصفَعُنا بِالحُبِ الدَاكِنِ ، و كَانَ بَيني و بَينَهُ مَسَافَةُ قُبلَةٍ ، و لَكِن هُنَا تُباعُ القُبَلُ وتُشرى بِالمُهورِ ، لأنَّ اللمَسَ شَرَفٌ ، و الوجهَ شَرَفٌ ، و الحَديثَ شَرَفٌ ، و الفُروجَ شَرَفٌ و قَضيَةُ الشَرَفِ هُنا صَعبَةٌ جِداً ، و لأنَكَ تَرعرَعتَ في قَطيعٍ لا يُستهَانُ بِشَرفِهم ، فَلن يُنجيكَ من لَعنَةِ المذَبَحِ سِوى مُعجِزَةٌ رَبانيَةٌ ..

و لأنَ تَعَالِيمَ الله تَلقَّيناها بِالقَسوَةِ لا بِالمَوعِظَةِ الحَسَنَةِ ، فَإنَّكَ مُجبَرٌ على التَعايُشِ مع هَذا القَطيعِ الذي لَمْ يَعرِف

الحَق إلا بِالعَصا ، تَخَيّل أن تُضرب عِندَما تَبلُغ الحُلم لأنَّكَ لم تُصَلِّ.

بِبَساطَةٍ سَوفَ يَكبُرُ الحِقدُ فِيكَ تِجَاه هَذا الدِين ، لأنَّكَ لَمْ تَرتَوِ مِنهُ حُباً بَل تَلقيتَهُ ضَرباً و قَسوةً

إنَّ هُناكَ مِنَ الكُرهِ و الحِقدِ في تُراثِ الدياناتِ عَامَّةً ما يَجعَلُكَ تَقِفُ ما تَبقَى مِن حياتِكَ صَمتاً على الإنسانيَةِ ، الحَشو المُمَنهج ، و آثارُهُ السلبيَةُ لن أتحَدّثَ عَنها أبداً ، بل مِنَ السَهلِ أن تَرى مُشاحَناتِها على الرُقعَةِ العَربيَةِ في شَرقِنا الهَزيلِ

و مِن بَابِ تَسليطِ الضَوءِ على مَن يَصطادُ عَواطِفَ البَشَرِ في الماءِ العَكِرِ ، و ليُجيّشوا الأجنِدَةِ لِحِساباتٍ شَخصِيَةٍ و مَنَاصِبَ وَهميَةٍ ، و من مِثلنا في الإجرامِ !.

لا أحدَ أبداً ، مِنَ السَهلِ أن تُثيرَ حَرباً طَائِفِيَةً أو قَوميَةً أو عِرقيَةً خِلالَ ثَلاثينَ دَقيقَة فَقَط ، نَعَم ثَلاثينَ دَقيقَة فَقَط أعطي لأحَدِ المُعَمَمينَ أو لأحَدِ السياسيينَ أصحَابُ الفَخَامَةِ و الجَلالَةِ و السيادَةِ و لأبونا أو لِشيخِنا مِيكرِفوناً أو مِنبَراً

وإما حاشيَةً مُخدَّرَةً مِنَ القَطيعِ و أُترُك لَهُ البَقيَةَ ، و قَبلَ أن يَتفَوهَ سيادَتُهُ بَأيةِ كَلِمَةٍ ، مُباشَرَةً ، وبِدونِ أيّ تَرَدُدٍ ضَع خَبَرَكَ العَاجِل في أيَّةِ صَفحَةٍ إلكترونيَةٍ الخَبرُ السَاخِن..

عَاجِل : عَشَرةُ قَتلى و أربَعونَ جَريحاً ..

يا أخَي نَحنُ أُمَّةٌ عَاطِفيَةٌ وَاحِدَةٌ ..

أُمَّةٌ مَعقودٌ مُستَقبَلُها بِماضيها ..

الماضِي المُلَوثُ بِالدِماءِ و الظُلمِ ، و مِنَ الغَباءِ بِأنَنا لَمْ نَتَّعَلم مِنهُ سوى أخذِنا بِالثَأرِ ، و من يَثأرُ لِمَن؟.

نَحنُ نَثَأرُ لِلماضي و لِلمُستَقبَلِ بِغباءِ عواطِفِنا ، أينَ العَقلُ يا تُرى؟ لا مَكانَ لِلعَقلِ ما دامت المَنَابِرُ الطائِفيَةُ و القَوميَةُ قَائِمَةٌ ، و تَهدِمُ بِنا مَجداً ، و تبني لنا جَهلاً ..

هو الحُبُّ وَحدَهُ الحَلقَةُ المَفقودَةُ ..

لا نُمَارِسُهُ إلا عَبرَ صَفقَةِ بَيعٍ بينَ الرِجَالِ بِمُسَمياتٍ أُخرى يُطلِقونَ عَليها المُهور ، و أرقَامٌ بِالهَبَلِ ، و تَبذيرٌ لَمْ نَسمَع بِهِ في قُصورِ المُلوكِ الأرستُقراطيين ، و أطعِمَةٍ تُلقَى في النِفَاياتِ من أجلِ عَينِ و هَيبَةِ أُمِّ العَروسِ ..

و صَالاتٍ فَخمَةٍ و مجوهراتٍ بَاهِظَةٍ ، و دُورٍ و قُصورٍ ، ما جَمعَ بينَهُم هو الطمَعُ ، لَو خَرجَ جَدُّكَ مِن قَبرِهِ و رأى هذا الإسرافَ و التَفاخُرَ و التَصنُّع بَينَ أهلي العَروسينِ لمَاتَ غَيظاً.

ذُبِحَ الحُبُّ على بَلاطِ القُلوبِ المُرصَعَةِ بِالطَمَعِ ، وعَادَ الحُبُ غَريباً كَيومِ وَلدَتهُ أُمُّهُ.

عِشتُ مَع صَديقي الذِي تَعثَّرتُ بِهِ قَدَراً مِنَ الأشهُرِ التي لم تَبلُغ الحُلمَ ، و كَانَ الحُبُّ يَتَطَّفَلُ عَلينا تارَةً ، و تارةً أُخرى يَتجَسَسُ عَلينا بِحِشَريَةٍ لَمْ أرَ لِلَهفَتِها مَثِيلاً ، و دَبَّ الهَلعُ في البِلادِ فَجأةً ، هُنا سُوريا .. دِمشق عَاصِمَةُ مَن لا عَاصِمَةَ لَهُ ، و الحُضنُ الحَنونُ لِكُلِ مُشَرَدٍ و مَظلومٍ و مُطَارِدٍ و مَنفِيٍ ، و مَع أنَنا نَعيشُ في قَعرِ دَارِنا إلا أنَنا واللهِ نَعيشُ في مَنفى نَفسٍ لا يَعلَمُ بِهِ سِوى اللهِ ..

لَقَد نَفِذَ الحِبرُ فَجأةً مِن أقلامِنا عِندَما وَصلنا إلى آخِرِ سَطرٍ مِن قِصَةِ طَاغيَةٍ حَكَمَ البِلادَ أربَعَةَ عُقودٍ مِنَ الزَمَنِ ، لو أنَّهُ أتانا عَن طيبِ خَاطِرٍ كُنّا ابتلَعْنا سُمَّهُ و قُلنا :

و ما ظَلمناهُم و لَكن كَانوا أنفُسَهُم يَظلِمون ..

و لَكِنَّهُ جاءنا وِراثَةً ، و بِلُغَةٍ اعْتَدنا عَليها ، لأنَّنا فَقدنا كَرامَتَنا ، و إن كَانَ جَدُّكَ الذُبياني أو العدناني أو الغَسَّاني رَجُلاً من صَلبِ رَجُلٍ ، أخرِجْ لِسَانَك من غِمدِهِ و قُل في وَجهِهِ :

لا ..

أعلَمُ بِأنَّكَ جَبانٌ ، فُطِمتَ على الخَوفِ ، و أنَّكَ تُحِبُ الحياةَ ما استَطَعتَ إِليها سَبيلاً ، و أنَّكَ وَاقِفٌ على نَاصيَةِ الحُلُمِ تُقَاتِلُ مِن أجلِ البَقاءِ ، و أنَ لعنَةَ اللهِ على الظَالِمين.

ولَكِنّنا نَعشَقُ الحُرّيَةَ و الكَرامَةَ ، ولإنَنا دُعاةُ سَلامٍ ، فَقد فاضَ فِينا الغَضَبُ ، و خَرَجَ الغَيظُ من مَسَارِهِ ، و ثارَ بُركَانُ الشَعبِ ، و كَانت كُلُ الفُرَصِ مُهيأَةً لِثورَةٍ تَجعَلُ الوِلدانَ شيباً.

وَقفَ العَالَمُ يَنظُرُ إِلينا كَيفَ نُصطادُ كَالعَصافيرِ ، و سَيلُ دِمائِنا عَبرَ حُدودنا مع الجيرانِ ، ولَكِنَّ الجيران كَانَ قَد ألجَمَ الرُعبُ ألسِنَتَهُم ..

بينَما العَالمُ يُشَاهِدُ شُهَداءَنا تَموجُ بِها الأكتافُ إلى السَماءِ ، كَانَ الظَالِمُ يُغيرُ عَلينا الغَارة تِلو الأُخرى ، و لَكَأنَ الوَطنَ لَيسَ بِوَطَنِهِ و الشَعبُ لَيسَ بِشَعبِهِ! ، لَقد جَعلَ مِنَ الوَطَنِ أيقونَةً لِلخَرابِ و الدَمارِ ، و عِندَما نَفِذَت ذَخيرَتُهُ و ضَعُفَ أعوانُهُ ، و انشَقَّ عنهُ مَن انشقَ ، بَدأت صَرخَاتُه تَتَعالى ، سَمِعَهُ اللُبنانيونَ أسنَدوا ظَهرَهُ ، و وَصَل صَوتهُ للإيرانيين فَقوموا عُودَهُ ، و أما الرُوس فقد أتَونا مِن كُلِ حَدبٍ وَصوبٍ بِكُلِ ما أُتيَ الموتُ مِن ذَبحٍ و سَلخٍ و وَحشيَةٍ ، و نَحنُ على حَافَةِ الوَرقِ.

بِتنا نَكتُبُ لِلأُمَمِ التي أفرَغَت في نُفُوسِنا الأمانَ ، و نَتساءل:

أينَ إنسانيَتُكُم فيما يجري مِن دَمارٍ !؟ ..

و نَحنُ في قَلبِ العَاصِمَةِ ..

انقَسَمَ أبناءُ دِمشق بَينَ مُؤيدٍ و مُعارِضٍ ، و حَدَثَ الشَرخُ الكبيرُ في المُجتَمَعِ السوري ، و حَتَّى بَينَ أبناءِ البَطنِ الواحِدِ فَما بَالُكَ بِأبناءِ الوَطَنِ الواحِدِ؟.

هَل سَمِعتَ بِمُعجِزَةٍ اسمُهَا :

تَقبُل الرأي الآخر !؟ ..

إنَّها الديمُقراطيَةُ ، الإنصاتُ لِلغَير مَهما كانَ ألَمُهُ مُخَالِفاً لِألمِنا ، لَعلَّنا نَحنُ على خَطأ ! ، لَعَلَّ هُناكَ ما غُيبَ عَنا ! ، لَعَلَّ مَا عِندَهُ يُقنِعُ تَعصُبَنا ! ، هَل تَعلَمُ أينَ البُطُولَةُ ؟

البُطُولَةُ أن تَتبعَ العَقلَ و لو كَانَ مُراً ،الحياةُ ليست بِكامِلِها تراجيديا .. أبداً البَتَة ..

لَو كَانتِ الحَياةُ كَذَلِكَ ، ما وجِدَت الكوميديا و لا الأكشن و لا الدراما ، و لا حَتى الرومانسِية ..

إنَّ ما حَلَّ بِنا في الآوِنَةِ الأخَيرَةِ ، و خُصُوصاً التَقلُباتِ العاطِفيَةِ تِجاهَ ما يُسمَى ثَورَةَ الحُريَةِ ، هِي الخِطاباتُ و الإنشِراخَاتُ بَينَ أبنَاءِ القَضيَةِ الوَاحِدَةِ ، و أتَتنا الأحزابُ و

التَيارات و الطَوائِفُ من كُلِ حَدبٍ و صَوبٍ ، و حَتى الأشِقّاءُ العَرَب كُلُ دَولَةٍ و طَائِفَةٍ تُريدُ أن تَقتَسِمَ الكَعكَةَ ، بِتُّ أتسَاءَلُ .. لِهَذِهِ الدَرَجَةِ وَطَنُنا شَهيٌ ؟؟ ..

نَعم و أشهَى مِما تَتَصوّر! ..

الكُلُ يَزحَفُ نَحوَ مَطَامِعِهِ ، الكُلُ نَهَشَ بِقَضيَتِنا ، و سَفكَ دِمائنا ، و كُلُ شَخصٍ خَرجَ عن مَسارِ المُطالَبَةِ بالحُريَةِ و الكَرامَةِ كَان و لِلأسَفِ لَهُ نَصِيبٌ كَبيرٌ في إرَاقَةِ مَزيدٍ مِنَ الدِماءِ ، فَهَذِهِ الدِماءُ لَيسَت بِدِمَائِهم ، و الوَطَنُ لَيسَ بِوَطَنِهم ، و هَذا الدَمارُ العَظيمُ الذي حَلَّ بيتامى الوَطَنِ لَيسَ مِن جُيوبِهم.

القَضيَةُ العُظمى التي تُقاتِلُ لأجلِها عِندَما تَكونُ وَاضِحَةً و جَليَةً لِلقاصي و الدَاني تَستحقُ أن تُفدَى بِالأرواحِ و الأموالِ ، و القَضَايا الضَبابيَةُ التي لَها أجِندَةٌ خارِجيَةٌ حَرامٌ أن نَكتُبَ بِها أو لهَا حَرفاً ، لأنَ جُهدَنا الضَبابِي حَرامٌ عَلَينا في عامِنا هَذا و بَلَدِنا هَذا وثَورَتِنا هَذهِ.

إنَّ الذينَ جَاؤونا بِراياتِهم السوداءِ نُصرةً لَنا ، لَمْ يأتوا عَن عَبَثٍ لا ورَبِّ الثَورَةِ ..

إنَ هَذا التَجييشَ العاطِفيَّ الجَبانَ الذي عَرِفَ كَيفَ يَصطادُ بِالماءِ العَكِرِ قَد أتقَنَ لُعبَتَهُ ، و نَصَبَ شِباكَهُ ، و سَلَ سَيفَهُ ، ظَنَّ تُجَارُ الوَطَنِ و أصَحابُ البُورصاتِ الذِينَ يُقايضونَ الدِماءَ بِبِضاعَةٍ رخيصَةٍ ، بِأنَّ هَذِهِ اللِحى و العمائِمَ جَاءَتنا لِتَزرَعَ في الأرضِ حُباً ، و ما أغبى مَن سَلَّمَ الوَطَنَ لِهَؤلاءِ المُجرِمينَ.

أُنظُر إلى النَزِيفِ الذي حَلَّ بِالوَطَنِ هَل شاهدتَ مَن امتطوا سَنَم الثَورةِ من وُجوهٍ نَحنُ نَعرِفُها و نَعلَمُ ما كَانَت تَفعَلُهُ عِلمَ اليَقينِ فيما مضى !! .. شَاهِد كَيف قَدَّموا الوَطَنَ الجريحَ لِلمُجرِمينَ و أصحابَ الراياتِ السَوداءِ التي جَعلَت مِنَ الوَطَنِ مُستَنقعَ وَحلٍ ممزوجاً بِالدِمَاء.

هَل هَذا دِينُ الله !!؟ ..

أنَا ، و أنتَ ، و نَحنُ ، كُلُنَا في عَقِيدَتِهم كُفَارٌ ، و يَجِبُ أن يُقامَ علينا الحَدُ ، و الحَدُ في مَفهومِهم هو أن يُفصَلَ الرَأسُ

عنِ الجَسَدِ بِسيوفٍ تُنسَبُ لأناسٍ يَسعونَ لَيلاً نهاراً لِإخمادِ نُورِ اللهِ.

و يأبى اللهُ إلا أن يُتِمَ نُورَهُ و لو كَرِهَ المُجرِمون ..

كُنتُ أخرجُ كَأُنْثى إلى كُلِ مُظَاهَرةٍ تُطَالِبُ بِالحُريَةِ ، و لا أتَردَّدُ و لَو لِلحظَةٍ أن أُناصِرَ الحَقَّ ، و أُعادي الظُلمَ ، و لأنَّ الظُلمَ مقِياسٌ يَعرِفهُ الشَعبُ مُنذُ خَمسينَ سَنَة ، و هُوَ شَبحٌ دِكتاتُوريٌ يُسمَّى الأسَد ، فَنحنُ كُلُنا أرانِبُ في غَابَتِهِ.

يَا أرانِبَ أُمَتِنا ..

يَا أيُّها المُندَسينَ ، يَا خَلايانا النَائِمَةَ ، يَا أيَتُّها الجرذَانُ التي تُريدُ أن تُسقِطَ قِلاعَ الوحوشِ اسمعوا ، هَكذا كَانَ خِطابُ الحُكَّامِ لِشُعوبِهم.

هُنَا حَدَّدَ الشَعبُ مَصيرَهُ ، و عَرِفَ مُنذُ الأزلِ بأنَّ تَقبُلَ الرأي الآخَرِ مُجرَّدُ وَهمٍ.

غَرِقَت شَوارِعُ الوَطَنِ بِصيحاتِ الشَعبِ :

حُرّية .. حُرّية .. حُّرية ..

الشَعب يُرِيد إسقاطِ النِظَام ..

الذِي يَقتُلُ شَعبَهُ خَائِن ..
سُورِيا لَنا .. و ليسَت لِبَيتِ الأسَدِ ..

خَرجَتِ المُظاهَراتُ مِن كُلِ منَافِذِ المَساجِدِ ، ظَناً بِأنَّ الله سَوفَ يَحميهم ، و لَكِن استَغلَّ أُنَاسٌ هذا الحَدَثَ مِن بَني جِلدَتِنا ، و ابتدعوا دَعواتٍ مُنَفِرَةً و مُحرِضَةً لِلقتلِ بِاسمِ اللهِ ..
راحتِ الحَناجِرُ تُرَدِّدُ مِن غَيرِ وَعي :
هي للهِ .. هي لله .. لا لِلسُلطَةِ و لا لِلجاهِ ..
و لم يَكتفِ الأغبياءُ بِهَذِهِ الشِعَاراتِ لِتنطَلِقَ أُخرى عُمر ، عُثمان ، أبو بكر ، و عَلي دَم السُنة يَغلي غَلي !! ..
عِندَما سَمِعتُ هذا الشِعار فقدتُ صوابي ، مَا هَذا الجُنون ، و لِمَن يَهتِفون ، و مَن أرسَلَهُم ، و لِما هَذهِ الفَوضَى ؟!.
مِنَ المُفتَرَضِ أن يَستَلِمَ زِمَامَ الأُمورِ رأسٌ واحِدٌ يُعرَفُ بِإخلاصِهِ و سِياسَتِهِ فيما يَصُبُّ في مَصلَحَةِ الوَطنِ و مُتَطلبَاتِ الشَعبِ .. و لكَن صَدَقَ من قَال :

الدَراهِم .. مَراهِم ..

دُعِي لِحركَاتٍ جَديدَةٍ تَحتَ مُسَمى جَديد اسمُهُ :

الجِهَاد ..

حَسنَاً ، و الثَورة ؟

قَال لي أحُدهُم :

يَلعَن أبو الثَورة ، المُهِم دينُ الله ..

قُلتُ وَقتَها :

وهَل هَكذَا يُقامُ دينُ اللهِ؟!

نَظَرَ إليَّ نظرَةً متشكِكَةً

أنتِ عِلمانيَةٌ و تَدعينَ لِلكُفرِ ..

و مِن ذَاكَ الحَينِ قُلتُ في نَفسِي :

أعَانَ اللهُ الشَعبَ ، منَ و مَن سَوفَ يُواجِهُ ، سَقرَ الأسَدِ أم لَظَى الإرهَابيينَ ؟

و كُلُهُم يَصُبُ في وَحَلِ الإرهابِ ، لأنَ القَاتِل لا يَعرِفُ لِما قَتَل و لما قُتِلَ ، فَقط هَؤلاءِ أُنَاسٌ دَمَويونَ ، بِكُلِ شَيءٍ ، بِرائِحَتِهم ، و هِندَامِهم ، و أقنِعَتِهم ، و مَلامِحِهم ، و

أفكَارِهم ، و تَعصُّبِهم ، و عَدَمِ تَقَبُّلِ الطَرَفِ الآخَرِ ، لأنَ حِسَّ الإنسانيَةِ مَفقُودٌ ، و للأسَف إنَ سَرطَانِ الدَمَويَةِ مُنتَشِرٌ في كُلِ أورِدَةِ الجَسَدِ ..

مِنَ الصَعبِ أن تَتَخلَصَ مِن هَذهِ العُقولِ ذَاتِ القَنابِلِ المَوقوتَةِ التي لا تَعلَمُ مَتى تَنفَجِرُ ..

لم أكُن أعلَمُ بِأنَّ الشاب الذي كَانَ بِرِفقَتي لِثَلاثِ سَنواتٍ ، بأنَ لَهُ مَساراً طَائِفياً!

لَطالما كَانَ ينتهي أي نِقاشٍ بِعبارَةِ :

لِنبقى أصدِقاء ..

ما أقَساها مِن كَلِمَةٍ ، و ما أضعَفَهُ مِن حُبٍ ، مَجبولينَ على عَدَمِ تَغَييرِ الأفكَارِ لأنَّ العُقولَ مُعَطَلَةٌ مُنذُ خَمسينَ سَنَة على عدَمِ تَقَبُلِ الرأي الآخَرِ ، و إن أردت أن تُدلي بِرَأيِكَ سَينتَهي النِقاشُ بِكَلمةٍ واحِدَةٍ :

هَذا دِينُ آبائِنا ، و هَكَذا تَعلّمنا ، و لَن نُغَيّر مَا جَاءَ بِهِ الكِتابُ و السُنَّةُ ، حَسَناً و العَقلُ !! ؟؟

كَذلكَ سَتَستَمِعُ إلى الكَلِمَةِ المَشهُورَةِ :

العَقلُ ضَلالٌ إن خَالفَ النَصَّ ، طَبعاً و الذي لا يَتَخَطّى حُدودَ النَصِ سَتعلَمُ بِأنَّهُ جبانٌ .. جَبَانٌ .. جَبان ..

مَا الفَرقُ بينَهُ و بينَ أبو لَهَبٍ !؟ ..

لا شَيءَ أبداً فِكَلاهُما يُقاتِلُ على رَأيٍ مَبنيٍ على العَاطِفَةِ ، لأنَّ الله عُرِفَ بِالعَقلِ و بَعدها بالقَلبِ ..

فالذِي يُحبُ اللهَ حَقاً ، لا يَسمَحُ لأي رَأيٍ دَمَويٍ أو نَصٍ يَحُضُّ على القَتلِ و الذَبحِ أن يُشوِّهَ دِينَ اللهِ ..

و لأنَ العَقلَ مُعَطَلٌ و في مَحَلِ خَبَرِ عَاطِفة ..

فَلَن يُجدي مَعَهُ نَفعاً أبداً ..لأنَّكَ تتنَاقَشُ مَع جِدَارٍ بَازِلتي ، مَخدوعِينَ بالمنَاظِرِ ، و حُسنِ النوايا ، لأنَ لنا الظَاهِرُ و اللهُ يَتولّى السَرائِرَ ، خِطبَةٌ تَخديريَةٌ أو بِعبارَةٍ أدَقّ تَحريضيَةٌ دَمَويَةٌ و تَحِلُّ الكَارِثَةُ ..لأنَ الإنَسانيَةَ مَفقودَةٌ ..

لا أحدَ يَقولُ بِأنَّ الإنسانَ هو بِالحَقيقَةِ أخو الإنسانِ أبداً ، إلا من يُؤمِنُونَ بِالإنسَانيَةِ ، و دَائِماً ما تَأتِينا الشِعَاراتُ عَبرَ نُصوصٍ سَماويَةٍ كَما يَدَّعونَ يُحاوِلُ المُعتَقِدونَ بِها أن يَحمِلوها على وَجهٍ يُلائِمُ حِساباتِهم البَنكيَةِ و مَطامِعِهم الشَخَصيَةِ ، و فِي هَذِهِ الرَسَائِلِ ما يَحُضُّ على القَتَلِ و الذَبحِ و الإجرامِ ما يُفقِدُكَ صَوابَكَ ..

خَدعونَا فَقالوا :

تعَالوا إلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بينَنا و بَينَكُم ألا نَعبُد إلا الله ..

و جِئنَاهُم بِقُلوبِنا و عُقولنا و أرواحِنا على كَلِمَةٍ و طَاوِلَةٍ و وَطَنٍ و سَقفٍ يَحمي كَلِمَتَنا و حُرّيَتَنا و لَكن لمْ نَعلَم بِأنَّ الفَخَّ يَنتَظِرُنا ..

لِي اسمِي الخَاصّ و مِهنَتي الخَاصّة ، و أفكَاري الخَاصَّة ، أشَياءٌ لا تؤذِي أحداً ، و إن كَانَ فيها أذَى فَهي تُؤذيني بِالأصلِ ، و لم أحمِل سَيفاً و لم أقتُل أحداً و لم أهدِم بَيتاً و لم أُهَدِّد فِكراً ..

فَلِما تَنعَتينَني بِصِفَةٍ عُنصُرِيَةٍ !؟ ..

أيُعجِبُكَ ذَبحي على بَلاطِ مُحِبّيكَ !؟ ..

أخبِرنِي مَاذَا تُريدُ ! ، مِنبَراً ، كُرسِياً ، مَنصِباً ، مَأوًى ، مَالاً !! ..

خُذ ما شِئتَ مِن دَمِنا و جَسَدِنا و شَقائِنا و أَهدَي لنا الحُرّيَة..

لم نُطَالب بِشيءٍ سِوى بِكَلِمَةٍ و حُلمٍ :

بِدّنا كَرامة ...

لا تَكُن أنتَ و دَولَةُ الظُلمِ ضِدّي ، دَعني أعيشُ يَوماً أُعَبِّرُ فيهِ عن رأيي ، و أهتِفُ بِلُغَتي ، و أبني وَطَني كما أُريدهُ

بَل كَما كَتَبَهُ الشَاعِرُ أحمد طُوقان :

مَوطنِي مَوطنِي ..

الجَلالُ و الجمَالُ و السَنَاءُ و البَهَاءُ ..

في رُباكَ في رُباك ..

و الحَياةُ و النَجَاةُ و الهنَاءُ و الرَجَاءُ ..

في هواك .. في هَواك ..

هُل أراك .. هَل أراك ..

سالِماً مُنعَماً و غَانِماً مُكرَّماً !! ..

هَل أرَاك .. في عُلاك !! ..

تَبلُغُ السِمَاك .. تَبلُغُ السِمَاك ..

موطنِي .. مَوطنِي ..

الشَبابُ لن يَكِل هَمهُ أن يَستَقِلَ أو يبيد ..

نَستَقِي من الرَدى و لن نَكونَ للعدى ..

لَستُ مُجبراً أن أقتَنِعَ بِأفكَارِكَ أو مُعتقدِكَ أو إيمانِكَ ، و لَستَ مُجبَراً أن تَقتَنِعَ بِأفكَارِي و أحلامي و أوهامي ، و لا يَحِقُ لَكَ أن تَصِفني بِأي صِفَةٍ تَكفيريَةٍ أو نُعوتٍ لِسانيَةٍ قَذِرةٍ مَا دَامَ قَلَمي و كَلِمَتي تُدَافِعُ عنِ الإنسَانيَةِ و حقوقِ المَظلومِينَ في هَذا العَالَمِ ..

يا رَجُل .. بَس بِدنَا كَرامة ..

نَحنُ أبناءُ الشَعبِ المِضياف ، الذِي يَسعَى بِكُلِ وَسَائِلِ الكَرَمِ أن يُكرِمَ ضَيفَهُ و يَصبِرَ على دَينِهِ و يُواسِي جارَهُ .. مَظلومينَ .. فَقط بِحاجَةٍ لِقليلٍ مِنَ الكَرامَةِ فَقط ..

لا الكَرامَة بِفِعلِها و ثِقَلِها على الأرضِ مَوجودَةٌ و لا الكَلِمَةُ بِكافَةِ جَمَاليَاتِها مَوجُودَةٌ ، فَنحنُ عاطفيونَ لِلمَدى لِدَرَجَةِ أنَنا خُدعِنَا ..

فَلقَد دَفعَ آباؤُنا الثَمَنَ لأنَهُم صَفَّقوا لِلظَالِمِ و لم يَصنعوا لأجَيالِهم شَيئاً ، و نَحنُ نَدفعُ الثَمَنَ لِلظالِمين ..

ظُلمُ مُجرِمِ البِلادِ و حاشيَتِهِ و أتباعِهِ مِن أبناءِ الوَطَنِ و مِنَ المُرتَزَقَةِ الذين جاءَ بِهم مِن كُلِ حَدبٍ و صَوبٍ كَالروسِ و

اللبُنَانيين و العِراقيين و الإيرانيين ، و طَبعاً لم يأتوا من أجلِ عيونِ طَبيبِ العُيونِ ، بل مِن أجلِ تَنَازُلاتٍ على حِسابِ الشَّعبِ و الوَطَنِ ..

و ظُلمٌ آخَر جَاءنا مِن جَديدٍ كَمُتأسلِمينَ أصحابُ الراياتِ السوداءِ و الوجوهِ التي لا تَرمُزُ إلا لِلجَهَلِ و الدَمَويَةِ ، و مَن أدخَلَ هَؤلاءِ القَتَلَةَ إلا مَن قَدَّمَ عَاطِفَتَهُ على عَقلِهِ ، يا مَسَاكين ماذا فَعلتُم بِالوَطَنِ ..

أصَبحَ الذَبحُ عَادَةً يَوميَةً ، و القَتلُ في كُلِ مَكَانٍ ، و حَتَّى العَالمُ أصَابَهُ مَرَضُ المَلَلِ و اسأل فِلسطينَ و العِراقَ و غَيرِها مِنَ الدُوَلِ المَنكُوبَةِ في كُلِ أنحاءِ العالَمِ ..

لَقَد ظَنَّ المُجرِمونَ بِكافَةِ شِعارَاتِهم بِأنَ هَذا الشَعبَ عَبدٌ لَديهم ، و بِأنَ هَذا الوَطَنَ وجِدَ باسمِهم مُنذُ الأزَلِ ..

في عَام 2011 سَقَطَ نِظَامُ حِزبِ البَعثِ ، و سَقطَ معهُ الأسَدُ و كُلُ مَن سَانَدَهُ بِسَبَبِ الإنشِقاقاتِ التي حَصَلَت في صُفوفِهِ ..

و لَكِن هَذِهِ الدِماء التي رَوت تُرابَ الوَطَنِ بينَها و بينَ من امتَطوا ضَعفَنا و جَعَلوا مِنَ الثَورَةِ أُضحُوكَةً أمامَ كَرامَتِنا وَقفَةُ عَدلٍ أمامَ اللهِ ..

لَقَد انقَلبَ مَن انقَلَبَ على الحُريَةِ ..

و بَقِيَ المَظلومُ بينَهُ و بَينَ اللهِ وَقفَةُ عَدلٍ ..

و لَكن هَل سَتبقى هَذِهِ الحَواشِي من بَني الإجرامِ تَنتَشِرُ هُنا و هُنَاك أمامَ سِلاحٍ يُسَمّى فِكر و رَأي؟

لا نَملِكُ مِن هَذِهِ الثَورَةِ سِوى أقلامِنا و حِبرِنا و أُوراقِنا ، كَيفَ لَنا أن نُقَاوِمَ هَذا الكَمَّ الهَائِلَ مِنَ الدِكتاتوريَةِ ؟

وأنَا الأُنثَى ..

التَي وَقَفَت على قَيدِ الحُبِّ و الكَرامَةِ ..

لَمْ أعلَم بِأنَّ الكَرامَةَ مَقسومَةٌ إلى شَقَّين ..

شَقٌ عاطِفيٌ و شَقٌ إنسانِيٌ ..

و لا أعلَمُ مَعَ مَن أقِفُ أنا ، هَل أقِفُ مع رَأيي أم معَ الحُبِّ ، لا بُدَّ و نَحنُ نُقَاتِلُ دِفاعاً عن رَأيٍ اتَّخذنَاهُ بِالأمسِ شَرِيعَةً لنا أن نُدَافِعَ عَنهُ ، و لَكِن إن أمعنتَ مَلياً في مَعارِكِنَا مَعَ الطَرَفِ المُعادي لِرأينا لوَجدتَ بِأنَنا بِالفِعلِ نُدَافِعُ عن كَرامَتِنا ، لأنَنَا لا نَرى السُقوطَ هَزِيمِة بِقَدرِ ما نَراهُ مَساً لِكَرامَتِنا ..

مَن سَيفوزُ في المعرَكَةِ ..

الوَطَنُ أمِ الحُبُّ أمِ الكَرامَةُ ..

لن تَستَطيعي أن تُقنعي رَجُلاً يَرى هَذا الوَطنَ بِعَينِ شَهواتِهِ ، أو بِعبارَةٍ أصحّ بِشهَواتِ غَيرِهِ ..

تَخيّل أن تَرى هَذا الوَطَنَ وَجبَة مُبستَرَة ..

طَازَجَةٌ ، قَابِلٌ لأي إضافَةٍ تضافُ إليهِ

قَابِلٌ لِلعَلمَنَةِ أو الأسلَمَةِ أو الجُنونِ ..

و لَكن نَسوا بِأنَّ هَذا الوَطَنَ لَحمُهُ قَاسٍ ، و لا يُمضَغُ بأيَةِ وَسائِلٍ شَرِسَةٍ ، و الواقِعُ هو خَيرُ دَليلٍ ، جَميلٌ أن تَرى العَالَمَ كُلَّهُ في وَطَنِكَ يُقَاتِلُ مِن أجلِ إرادة الشَعبِ ..إرادَةُ الشَعبِ ، تِلكَ الكِذبَةُ التي يَحتَمي بِها جَميعُ القَتَلَةِ ، بِدَايَةً من المُدَافِعينَ عَنِ الرأي و الرأي الآخَر إلى الدِكتاتُور الذي جَاءَ بالطامِعينَ مِن كُلِ شَقٍ عَظيمٍ ، نِهايَةً بِالمُتَاجِرينَ بِالدين الذين جَعَلوا مِن شَرِيعَةِ الله شَمَّاعَةً لِلسَبِ و الشَتمِ .. جَميلٌ أن تَكونَ أنتَ خَارِجَ الوَطَنِ و إرَادَتُكَ تُقاتِلُ في جَوفِ الوَطَنِ ..

هُنَاكَ على ذَاكَ التُرابِ الذي لَمْ يَجِفَّ دَمُهُ بَعد .. لا زالت بَقايا بَشَرٍ ، لَهُم أحلامُهُم المُهَدَدَةُ بِالإنقِراضِ ، و حَقائِبُ سَفَرٍ على أُهبَةِ الهُروبِ مِنَ المَوتِ ، و مَنَازِلٌ مُرقَعَةٌ بِالخُوفِ ، و أشَياؤُهمُ الصَامِدَةُ أمَامَ أعاصير القَدَرِ .. هُنا على تِلكَ الدَّوامَةِ التي أنجَبَتنا أُمهاتٌ بِعُمرِ الحُزنِ و آباءٌ شَابَ فِيهِم الوَدَاعُ مِن كُلِ شَيءٍ .. حَتَّى وَدَاعهم لِلوَطَنِ ..

هُنَاكَ كَلِمَةٌ تُفقِدُكَ الأمَلَ ، و هُنَاكَ كَلِمَةٌ تُبقِيكَ على قَيدِ الأمَلِ ، و هُنَاكَ كَلِمَةٌ مَن أحياها فَكأنَما أحْيا النَاسَ جَميعاً ، و هُنَاكَ كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ تَفقِدُ على أَثَرِها الحياةَ ، و لَم تَخرُج هَذِهِ الكَلِمَةُ مِن فَمِكَ إلا لأنَّكَ مَظلومٌ .. نَعَم مَظلُومٌ لِدَرَجَةِ أنَّكَ لم تَعُد تَتَحَمَّلُ ضَغطَ هَذا العَالَمِ لِحُرِّيَتِكَ ..

كَلِمَةُ كُلُنَا نُقَاتِلُ و نُقتَلُ من أجَلِ تُرابِهِ ..

و لَكِن يَفنَى الجَمِيعُ و تَبْقَى الكَلِمَةُ التي أطلَقنا عَليها اسم .. وَطَن .

اذكُرُ في العَامِ الرَابِعِ لِلثَورَةِ السوريَةِ ..

و في وَسَطِ الإعتِقالاتِ و الإنتِقاداتِ و المَرحَلَةِ السياسيَةِ الأصعَبِ على سُوريا ، و كُلُ وَسَائِلِ الإعلامِ قَد حَزَمَت كَميراتِها و مُعدَّاتِها و حَجَّت بِمُذيعيها و مَيكرِوفوناتِها إلى المُدُنِ السورِيَةِ المَنكُوبَةِ ..

وَصلَ حُبِّي لَهُ حَدَّ الهَذَيانِ ، كُنتُ أعتَقِدُ عِلمَ اليَقينِ بِأنَّ الحُبَّ قَد نَضَجَ ، مِنَ المَنطِقِ جَنيُ ثِمَارِهِ ..

و مَن الذي زَرَعَ في قَلبي هذا الحُبَّ الهَائِلَ !؟

القَدَرُ الذي حَاَكَ لَنا أولَ لِقاءٍ مُحرِجٍ هو وَحدَهُ الذي يَعلَمُ إلى أينَ سَيذهَبُ بِنا ..

أخبَرَني ذَاتَ لِقاءٍ بِأنَّهُ سَيُسَافِرُ إلى مَدينَةِ الرَقّة ..

شَهَقتُ وَقتها ، و تَوقّفَ الزَمَنُ أمامَ عَيني على كَلِمَةِ .. مُسَافِر! ..

أهُوَ مُسَافِرٌ ! ، أو مُهَاجِرٌ ! ، أو مُجَاهِدٌ ! ..

لا أُرِيدُ أن أسمَعَ كَلِمَةَ مُجَاهِدٍ ، لأنَ فيها مِنَ الدَمَويَةِ ما يَسُدُّ شَهيتَكَ القَوميَةَ التي جَعَلَت مِنَ الوَطَنِ مَقبَرَةً جَامِعيَةً لأبنَاءِ الشَعبِ ! ..

العَاقِلُ يَعلَمُ بِأن كَلِمَةَ ثَورَةٍ ، و كَلِمَةَ جِهادٍ ، فِعلانِ مُتناقِضانِ ، لا يَجتَمِعانِ على أرضٍ وَاحِدَةٍ ، فإما ثَورَةٌ على الظُلمِ ، و إما جِهَادٌ على الكَفَرَةِ ..

و عليكَ أن تَعلَمَ بِأنَني أنا التي أُطَالِبُ بِالحُرّيَةِ ، و أنتَ الذِي ضَاعَ مُستَقبلُكَ مِن أجلِها في قَانونِهم كَافِرٌ ..أو مُرتدٌّ..

و أنت .. نَعَم أنتِ يا أُنثَى سَتَعودينَ ألفاً و أربَعُمائةِ سَنَة إلى الوراءِ .. تَعجِنين العَجينَ و تَرعينَ المَواشِي و تُرَبّي الأبناءَ و تَجمَعين الحَطَبَ و تُجهِزين جَسَدَكِ لِرَجُلٍ لا يَرى جَسَدَكِ إلا وَجبَةً آنيَةً لِلقَضمِ و الهَشمِ و إفراغِ الشَهواتِ ..

و كَمَا يَقول المَثلُ الشَعبي :

فَوقَ المَوتِ .. غصَّةُ قَبرٍ ..

و لَيسَ هَذا فَقط ، إيّاكِ أن تُظهري وَجهَكِ ، لأنَ الوَجهَ عَورَةٌ ، و حَرامٌ ، و مِنَ الكَبائِرِ ..

مَنِ العَورَةُ يا تُرى؟ إنَّها العُيونُ المُتَقلِبَةُ ، الشَرِهَةُ ، التي لا يَملأُها إلا التُرابُ ... كَيفَ سَيشبَعُ مُجتَمَعٌ ذُكُوريٌ في قَانُونِهِ السَماوي أنَّ الأُنثَى هَي ضِلعُ رَجُلٍ ! ..

و لَيسَت ضِلعاً فحسَب ! ، بَل ضِلعٌ مُعوَجٌ ، أما الرَجُلُ فَهوَ الشَريفُ ، الطَاهِرُ ، النَقيُ ، الذي لا تُشيبُهُ شَائِبَةٌ ، و لا يَمنَعُهُ مَانِعٌ مِن أيِّ شَيءٍ ..

أبكاني مَقالٌ ، ذَاتُ حَدٍّ أُقِيمَ على أمِيرَةٍ سَعوديَةٍ ، سَالت دُموعي مِن غَيرِ أن أعرِفَها ، باتَتَ تُرافِقُني الأحلامُ ،

تَمنّيتُ أنَّها بِجَانِبي ، و الذي نَفسي بِيَدِهِ تَمنّيتُ أنَني ضَمَمتُها ، عَرفتُها ، أو رَأيتُها ، و لَكِنَني مُقتَنِعَةٌ بِأنَني أُشبِهُها .. لأنَّهُم يُطلِقُونَ عَليها لَقَبَ : أميرَة .

و في الحَقِيقَةِ إنَّها أميرَةٌ بِمعنى الكَلِمَةِ مِن عَائِلَةٍ مَلَكيَةٍ ، أُعدِمَت مِن قِبَلِ أَفرادِ العَائِلَةِ المَالِكَةِ بَعدَ أن اتَّهموها بِالزِنا..

يا رَبّاه مَا هَذا الظُلمُ .. و لَيسَ هَذا وَحسَب ، بَل أُعدِمَت بِشَكلٍ غَيرِ قَانُونِي سَنَةَ 1977 لِلميلاد ..

إنَّها أميرَةُ الحُبِّ , مَشَاعِل بنت فَهد بن مُحَمد آلِ سُعود ..

إلى رُوحِها المُنطويَةِ تَحتَ الرِمَالِ الرَاحةَ والسلام ..

و إلى رِجَالِ الظُلمِ في العَالَمِ الهَلاكُ و الإندِثار ..

شُكراً لِمَن قَامَ بِنقلِ هَذا الخَبَرِ لَنَا ضِمنَ فِلمٍ حَقِيقِي أُطلِقَ عَلِيهِ : مَوتُ الأمِيرَةِ ..

استوحِي مَوت الأميرةِ مِنَ الأحَداثِ التي قامَت على قَتلِها في فِلم : دَراما وثَائِقية ، أُنتِجَ عَام 1980 لِلميلاد ..

شُكَراً للمُمثِلَةِ سوزان أبو طَالب و مُحَمد تَوفِيق و صَلاح جَاهِين و تهَانِي رَاشِد ..

و شُكراً للمَمَلكة العَربِية السُعودِية لِكَشفِ الوَجهِ القَذِرِ لعِصاباتِ المملَكَةِ الذُكورِيَةِ التي لم تَنجو مِنها أُنثى ، و أوّلَهُم الأميرة مَشَاعِل آل سُعود ..

ـ غَداً أنَا سَوفَ أُسَافِر إلى مَدِينة الرَقة ..

إنهُ قَرارٌ مِن طِرازِ الهُروبِ مِنَ الوَاقِعِ ، بل أنَا مُتَأكِدَةٌ بِأنَّهُ هُروبٌ مِنَ الحُبِّ ..

كَم مِن الرِجَالِ بَاعُوا حُبَّهُم من أجلِ فِكرَةٍ ، و كم مِن أُنثَى أمضَت مَا تَبقّى مِنَ الفَراغِ تَبكي و تَبكي ، كم مِن رِجالٍ حَملوا حَقائِبَ الذَاكِرَةِ على كَتِفِ قُلوبِهم ، و خَلَّفوا وَراءَ خَطواتِهم إناثاً بِعُمرِ الحُلُمِ ..

و مَا تُفِيدُ الأحلامُ الإناثَ ، و الذَاكِرَةُ قَد أصابَها العَطَبُ في حَقائِبِ الرِجَالِ ، لأنَنا نَحنُ معَاشِر الإناثِ مُجردُ أثاثٍ في حَياةِ رَجُلٍ ..

دَائِماً شَبَحُ الظُلمِ يُلاحِقُنا ، و دَائِماً الأنُثى مَن يَجِبُ عَليها أن تُضحّي بِكُلِ شَيءٍ ، و أكبَرُ التَضحياتِ كَرامَتُها و إنسانيَتُها و شَرَفُها ...

و لَكن مِن أجلِ مَن؟ ! ..

مِن أجلِ الحُبِّ الذِي تَراهُ في قلبِ رَجُلٍ ، و لكَن لَو كَانَ الرَجُل جِداراً ! ، فَمَا فَائِدَةُ الحُبِّ!؟ ..

يا حَبِيبَتِي الْتَقطِي مَعَ الحُبِّ صُورَةَ سِلفِي ، و ضَعي الصُورة في إطَارٍ ، و عَلِّقيها على حَائِطِ النِسَيانِ ، و دَعي النِسيانَ لِخيوطِ العِنكَبوت .. لأنَّكِ ضَحيَةُ ظُلمِ رَجُلٍ ..

و الكِذَبَةُ الأكبَر التي أطلقَ رَصاصها عِندَما قَال :

ـ أنَا أُحِبُّكِ .. ! ..

لا تَقَعي في دوارِ العَاطِفَةِ ، و لكَن اسَألي نَفسَكِ ، لِماذَا قالها الآن ، ثَلاثُ سَنواتٍ مِنَ المُكَابَرَةِ المُصَطَنَعَةِ ، تَحتَ غِطاءِ التَقوى و الإيمانِ و مَكَارِمِ الأخلاقِ ..

و هَل بِحاجَةٍ إلى كُلِ هَذِهِ الشَجَاعَةِ لِتُعلِنَ حُبَّكَ لي الآن ، و لِمَاذا الآن يا تُرى !؟ ..

جَوابِي لكَ ، أو تَوقُعي لَكَ قَاسٍ جِداً ..

سَأكتُبُ في هَذِهِ الليلَةِ الخالِيةِ مِن رائِحَتِكَ و صُورَتِكَ و كُلُ الخَطواتِ و الصَباحاتِ التي جَالسْتكَ بِها ، بأنَك :

جَبان ..

لَيسَ هَكذا تُعلَفُ الإبِلُ يا رَاعي النّسْيان !! ..

لنَ أظلِمَ الإبِلَ كما ظَلمتَني ، و لَكِن ها أنا أموتُ يَوماً بَعدَ يَومٍ ، وكُلَّمَا جَاءَ صَباحٌ أخلَعُ جَميعَ ذَاكِرتِي ، و أرتَدِي جِلبابِي و حِجَابِي ، و أقِفُ أمَامَ مَحطَةِ غِيابِكَ أبكِي بِشِدَّةٍ ، أنتَظِرُ جَميعَ القَادِمينَ مِنَ اللامَنطِق ، لأنَّ حُبَّكَ لي مُجَرَّدُ حُلمٍ و وَهمٍ ، كُنتُ أظُنُّ بإنَّ القَدَرَ سيجمَعُنا مَرَّةً أُخرى ، و لَكن لم أكُن أعلَمُ بِأنَّ الأقدَارَ تَخونُ كمَا خُنتَ أنتَ ..

و مَن عَلَّمَ الأقدَارَ الخيانَةَ إلا الرِجَال ! ..

أمَامَ المَحَطّاتِ أرى الذَاهِبينَ و العَائِدينَ من كُلِ شَتَاتِ الغِيابِ ، و مَا جَمعتهُم سِوى الدُموعِ ..

دُموعُ اللِقَاءِ و دُموعُ الوَداعِ ..

هِي وَحَدَها دَمعَةُ الأشواقِ من كَانت تَنتَظِرُ مَعي ، كَانت تنتَظِرُ الَطلقَةَ الثانيَةَ التي وَعدتْني بِها عِندَما قُلتَ :

ـ أنَا أعِدُكِ أنَنَي سَوفَ أعودُ إلِيكِ ..

لَقد صَدقَ و هُوَ كَذُوبٌ ..

لَقد عَادت أشَباحُهُ ، و رَائِحَة صَباحاتِهِ ، و عِنادهُ المُتَكَّرِرُ في كُلِ لِقاءٍ ، و نَظَراتُهُ التي يَعلو عَليها الخَجَلُ ، و أَدَبُهُ المُشَرَّبُ بِالإيمانِ ..

إنَّهُ هَذا الصّنفُ مِنَ الإيمَانِ الذي أوصَلنا إلى مُنعَطفِ الفُراقِ ..

لَو كَانَ فِراقاً صَامِتاً لابتَلَعتُ وَجعَ الفِراقِ ، و لَكِّنَهُ كَانَ فِراقاً مُرقَّعاً بِالعُهودِ .. عُهودٌ كَاذِبَةٌ ، مَبنِيَةٌ على انتِظارٍ كَاذِبٍ ..

و مَن يَظُنُ نَفسَهُ أن يَجعَلَني أسيرَةً خَلفَ قَفَصِ عُهودِهِ ، كم كُنتُ أتمنّى لو أنَّ الذَاكِرَةَ أوراقاً مَكتُوبَةً ، أو ثياباً مَنسُوجَةً ، أو أكياساً مَعطوبَةً ..

كُنتُ حَرقتُها ، و جَمعتُ رَمَادها ، و نَثَرتُ ذَرَّاتِها في يَومٍ عَاصِفٍ .. كُنتُ أتمنّى لو أنَني جَمَادٌ لا يَشعُرُ بَشيءٍ ، و لا يَحِنُّ إلى شَيءٍ ، و لا يَنتَظِرُ شَيئاً ..

دَائِماً نَحنُ الإناثُ نَنتَظِرُ و عِندَما نَحصُلُ على الشَيء الذِي نُرِيدهُ ، يَأتي ما تَمنّيناهُ مَكسُورَ الجَنَاحَينِ ، أو مُنافِقٌ

بِوجهينِ ، أو مُنتَهي الصَلاحِيَةِ ، كَأَنَنا كُنّا نَنتَظِرُ وَهماً ، فَهنيئاً لِمن كَانَت تَنتَظِرُ حُباً ، و أتاهَا غُبارُهُ ، فَهيَ التي تَعفَّرَت بِشيءٍ مِنهُ ..

فَكيفَ بِي ! ..

التي لم يأتيني مِنهُ سِوى خيالاتٍ و أحلامٍ و أشباحٍ ، أودَت بي أن أرتَادَ عِياداتِ الأطباءِ النَفسيين ، و أنَا أعلَمُ دَائي و دَوائي ..

بَعد غَيابٍ دَامَ سَنتِين رَحلَ بِحُبٍّ و وَعدٍ و انقَطَعَ كُلُ شَيءٍ ..كُلَّ يَومٍ أبحثُ عنهُ في كُلِ أنحاءِ الصَفحَاتِ الفيسبوكية و غَيرِها من صَفحَاتٍ إلكِترونيَةٍ ، أدخُلُ إلى الصَفحاتِ المَشبوهَةِ ، و المَواقِع المَمنوعَةِ ..أُريدُ بَصيصَ أمَلٍ ..و لَكن أملٌ في مَحَلِ خَبَرِ كِذبَةٍ ..انتَظري يا أمل بَصِيصَ أملٍ ، انتَظِريهِ أمَامَ كُلِ شِتَاءٍ ، في كُلِ فَصلٍ جَامِعِي ، في مُواجَهَةِ مِرآةِ العهودِ الخَائِنَةِ ، في الطُرقَاتِ المُبَلَلَةِ بِالذِكرياتِ ، على الأرصِفَةِ الشاحِبَةِ بِالبُؤسِ ، انتَظِريهِ يا أمل أُرِيدُ أن أُريحَ هَذا الصَخَبَ في قَلبي ..

و لكن كُلُ حُكمَاءِ الحُبِ قَالوا :

بِأنَّ لَعنَةَ الحُبِ لَيسَ لهَا شِفاءٌ إلا المَوتُ ..

و الموتُ لا يَليقُ بِنا أن نَخُوضَهُ إلا حُباً .. حُباً بِهِ .. و لَهُ.. و مِن أجلِهِ .. و لأجلِ وَعدٍ جَعل من أهلِي مُعينينَ لي بَدَلاً أن أُعينَهُم ..

بَعدَ أن يَئسَتْ أُمّي مِن عَدَمِ تَقَبُلي لأي طَعَامٍ ..

وفقَدتُ الكثيرَ مِن وزْني ، و زَادَت حِدَةُ الإكتِئابِ عِندي .. جُنَ أهلي ، و أضحى أبي يَعمَلُ كَمُسعِفٍ لي بَين فَينَةٍ و فَينة .. و كُلُ الأطباءِ في دِمشقَ كَانَ لَهُم نَصِيبٌ بِرؤياي ، حَتى أضحيتُ حَديثَ القَاصِي و الدَانِي ..أُنثَى بِجمَالِ دِمشقَ .. تُصَابُ بِالعَينِ تُصَابُ باكتِئابٍ حَادٍ لا أحدَ يَعرِفُ سَبَبَهُ ..

أنَا التي أعلَمُ بأنَّ عِلَّةَ الحُبِ لا يُغَيرُهُ مكَانٌ و لا زمَانٌ ، فَكيفَ لو كَانَ الحُبُ مُشرَّبٌ بِالشَوقِ ، معقودٌ بِالوعودِ و العُهودِ ..

أبِي .. كم هُوَ مِسكينٌ ..

أُمّي .. كَم هي هَشَّةٌ ضعيفَةٌ أمامَ ما يَجري ..

عِندَمَا تَرى فَلذَةَ كَبِدِكَ تَذُوبُ قِواها على مَرأى ضَعفِكَ تُصبِحُ كَالغَريقِ، غَريقٌ قَد تعَلَّقَ بِقَشَّةٍ ..

ـ كُلِي يا حَبِيبةَ أُمِكِ ..

ـ لَستُ جَائِعة يا أُمّي ..

ـ إلى مَتى عَلى هَذهِ الحَالَةِ يا حَبِيبَتي !؟ ..

يا مِسكِينة يا أُمّي ، إنَ ما حَلَّ بَي لَيسَ لَهُ قَواسِمُ مُشتَرَكَةٌ في الأطعِمَةِ و الأغذِيَةِ ، إنَّها مُعضِلَةُ كُلِ أُنثَى تَنتَظِرُ وَهماً ، لقَد فَقَدَ أبي السَيطَرَةَ أمَامَ مَا يَجري مِن تَدَني في حَالَتي الصِحيَةِ و النفسيَةِ ، حَتى عَرضَ بَيتَنا لِلَبيعِ ..

و بِيعَ البَيتُ بِثمَنِ الحَربِ ..

و جُمِعَت حَقائِبُ الحُزنِ أمامَ عَتَبَةِ الشَامِ ..

وَقفَ أبي باكياً ، و لم تَكُفَّ أمّي عَن النحِيب

و في مُستَودعِ السيّارَةِ حُمِلَت أشواقُنا و أحلامُنا إلى العَاصِمَةِ التُركيَةِ .. اسطنبول ..

كانَ طَريقُنا إلى المَهجَرِ بِرِعَايَةِ رَاعي الحُبِ الرَسمي ، و الكِذبَةِ التي لَمْ أقتَنِع بِأَنَّها كِذبَةٌ لأنَنِي لا زِلتُ على قَيدِ

الإنتِظَارِ ، الكِذبَةُ التي أطَلقنا عَليها الحُبّ ، تُريدُ أن تَكونَ فارِساً ..خَيَّالاً تَمتَطي خُيولَ العِشقِ ..

شَهَياً كَبِدايات الشِتاءِ ..

بِذاراً نَقِيَةً في خُصوبَةِ أُنْثى لم تَعرِف مِنَ الحُبِّ سِواكَ ! ..

لا تَعِدْ أُنثَى بِأنَّكَ سَتَعودُ ..

لا تَرمِي كَلِمَاتِ حُبِّكَ كَالرِمَاحِ الضَارِيَةِ ، حَتى لو كُنتَ مَازِحَاً ، في حَديثِ الحُبِّ .. الأُنثَى لا تَعُد تَعرِف إن كَانَ حُبُّكَ مِزَاحاً ..

لأنَ كَلِمَةَ أُحِبُكِ آنِسَتي ..

تَعني بِأنَّكَ أحَييتَها من وَاقِعِها المُكَدَّرِ ..

كُن شُجاعاً لو مَرّةً وَاحِدَةً ..و أعْطنِي حَقِي ..

لم تَرَ أبي و أُمّي كَيفَ يَتنَاوبونَ عَليَّ بِالسَهرِ على رَاحتِي النفسيَةِ ، تَعرف مِن أجلِ مَن ؟

من أجلِكَ أنتَ ..

أنتَ الغائِبُ الحَاضِرُ بِكُلِ تَفاصِيلِ المَساءِ و الرَحَيلِ ، رَحلتَ أنتَ ، و رَحلتُ أنَا ، و بَقِي الحُبّ يَجلِدُني يَوماً بَعدَ يومٍ ..

حُبٌ و شَوقٌ و شَغَفٌ و وَلَهٌ ..

و سَهرٌ طولَ الليالي التُركيَةِ ..

أشفقتُ على أهلي ، أتعبَني الإرهَاُق في عُيونِ الأحِبَةِ ، أحبَبتُ أن اُريحَهُم ، و لَكِن هَيهَاتِ أن يَخلُدَ قَلبي إلى النَومِ..

لأنَنَي على قَيدِ الإنتِظَارِ ..

و لَكن متى سَنَلتَقي !؟

أنتَ وَحدَكَ تَعرِفُ مَتى ، و أنا وَحدي مَن حَمَلَ عَهدَكَ على مَحمَلِ الجَدِّ ، فَخسِرتُ ما خَسِرتُ مِن صِحَةٍ و عَافِيَةٍ و رَاحَةِ بَالٍ ، و بَيتُنَا الدِمشقي و الوَطن و أنت ، و حَتى أنَا ..

إذا قَرأتَ رِوايَتي هَذِهِ ، أو سَمِعتَ بِها ، فأنَا هُنا في تُركيا ، اسطنبول ، بِجَانِب مَسجِدِ الفَاتِح ..

على مَا يَبدو بِأنَّكَ لن تُضِيّعَ عُنواني لأنَ أبي مَعروفٌ بِحُسنِ الجِوارِ و إيمَانِهِ الصَادِقِ الذِي لا يُشبِهُ إيمانَكَ الكَاذِبَ ، و قَبلَ النِهايَةِ أُرِيدُ أن أعرِضَ عَليكَ شَيئاً أنا مُتأكِدٌ بِأنَّك قَرأتَهُ :

عَن أبي هُرِيرة قَال ..

قَالَ رَسوُلكَ أنتَ .. نَعم أنت :

آيةُ المُنَافِق ثَلاثٌ ..

إذا حَدَّثَ كَذَب ..

و إذا وَعدَ أَخْلف ..

و إذا أؤتُمِنَ خَان ..

طَبعاً الحَدِيثُ مُتَفَقٌ عَليهِ في صَحيح مُسلِمٍ و صَحيح البُخَارِي ..

ما شاءَ الله يَا حُبّ كُل صِفاتِ النِفاقِ فِيكَ ، لم تَتَرُك شَيئاً لأحَد ..

صَدِيقَتكُ .. أو حَبِيبَتُكَ ..

الدِمشقِيَةُ .

أتمَمتُ رِواية :

مُتَخفِية بالتَقوى

في بَلَدِ الحُرِية و الدِيمقرَاطِية : النَمسا ، في عَاصِمَةِ البِيانو و الكَمنجَة : فيينا ،

في مَقهى المَكتبَة العَامة في البُورغاسة ..

السَاعة : 00 : 03 ، ظُهراً بِتوقِيتِ الإنتِظَار ..

مِن تَارِيخ : 9 / أكتُوبر / 2017.